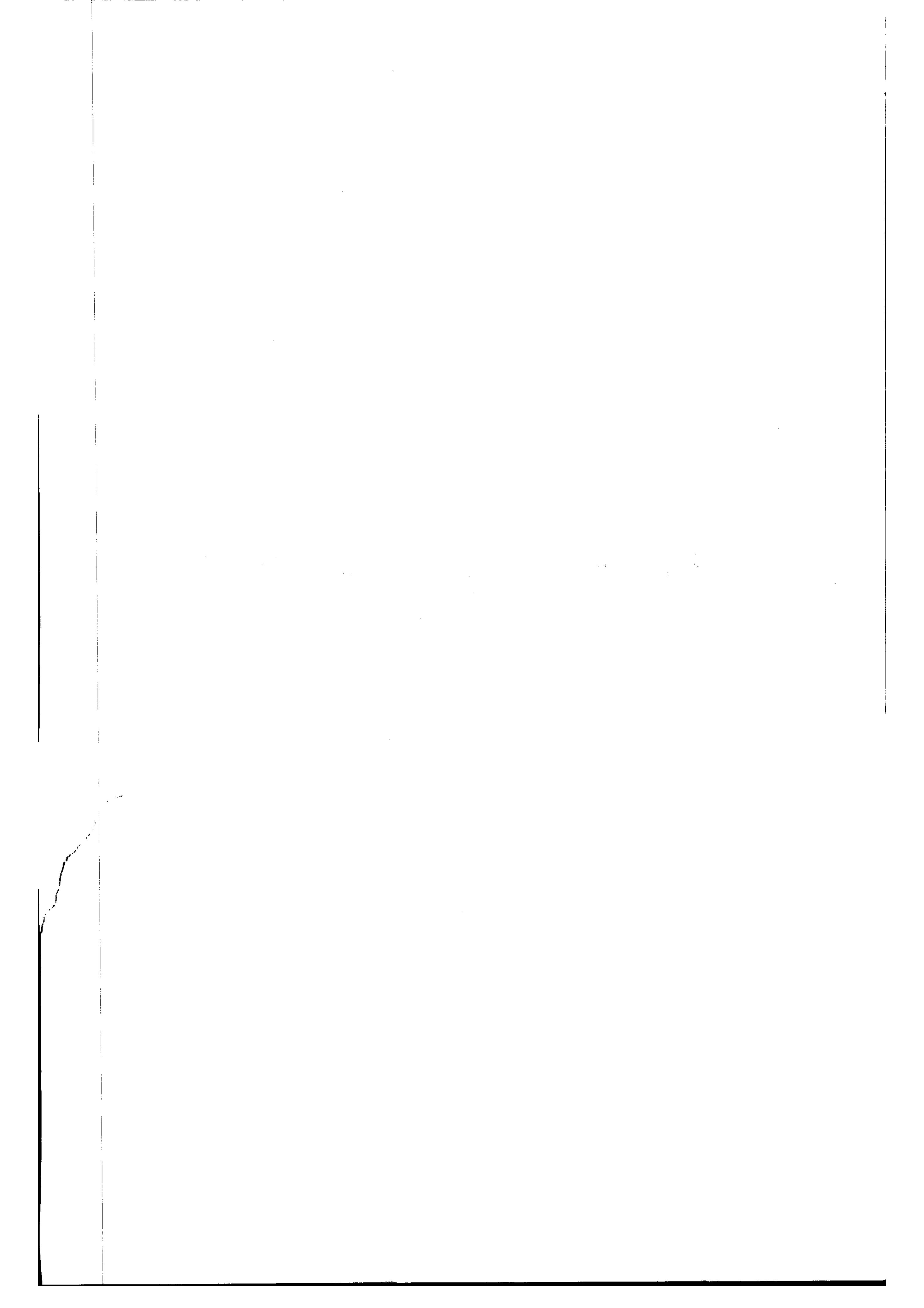
جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات- بالقاهرة
قسم العقيدة والفلسفة

اليهود واليهودية من وجهة نظر إسلامية

دراسة مقارنة

الأستاذة الدكتورة/ نورشيف عبد الرحيم مصطفى رفعت



تمهيد

يركز هذا البحث على اليهود ، وديانتهم ، وكتبهم المقدسة وأنبياءهم كما ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وبادئ ذي بدء ألفت النظر إلى سعة هذا الموضوع وتشعبه وتعقيداته ، وهذا بالطبع يجبر الباحث على أن يكون محدداً ومتخيراً لأهم جوانب المادة العلمية صلة ببحثه وتأثيراً فيه.

هناك عدة طرق ممكنة في معالجة هذا الموضوع:

الطريقة الأولى : أن يعالج طبقاً للنظام القرآني ، أعني بحسب ترتيب ظهور الآيات الخاصة باليهود في القرآن الكريم كما هي في المصحف.

الطريقة الثانية : طبقاً لتسلسل الحوادث التاريخية في حياة النبي ﷺ .

الطريقة الثالثة : أن يراعى الجانب الموضوعي . أي أن يقسم البحث إلى موضوعات يدرس كل منها على حدة كأن يدرس مثلا أنبياء اليهود، شعائرهم، كتبهم، قضية التحريف، موقف الإسلام من اليهود، وموقفهم من الإسلام وهكذا. ونحن نفضل هذه الطريقة الأخيرة كمنهج للدراسة ولكننا في نفس الوقت لا يمكن أن نهمل الطريقتين الأولتين جملة وذلك نظراً لتداخل الحوادث محل الدراسة، واتصال الموضوعات بعضها ببعض إلى حد يصعب معه أحياناً الفصل بينها وكما هو واضح من عنوان هذا البحث فإننا يمكن كذلك أن ندرس اليهود كما تحدث عنهم القرآن الكريم ، ثم ندرسهم من خلال السنة النبوية المطهرة وبما أن السنة هي شارحة للقرآن ومفصلة له فإننا سنعتمد في دراستنا على المصدرين معاً .

وإنه مما ينبغي أن يكون معلوماً من البداية كذلك أنه توجد هناك مشابهات بين بعض محتويات القرآن الكريم وكتب اليهود والنصارى، وهذه الموضوعات أو الحوادث المتشابهة محل ملاحظة أي مطالع يقظ ، لكن تفسير هذا التشابه شبه الكامل التام في المحتوى أحياناً هو محل اختلاف بيننا وبين الكتابيين ، فهم يدعون أن محمداً ﷺ قد انتحل مثل هذه الموضوعات من كتبهم واستعان بها كمادة مساعدة على كتابة القرآن الكريم ، والمعلوم أنهم يزعمون بأنه ﷺ قد كتب القرآن من عند نفسه أو من مخيلته كما يقول مونتجمري وات في كتابه " **محمد نبياً ورجل دولة** " [١] .

---

(1) W. Montgomery watt , Muhammad prophet and statesman , Oxford , (Oxford university press, 1978) p.261 .

ولقد حاول المستشرقون على اختلاف مدارسهم ومهايعهم أن يؤكدوا صلة النبي ﷺ باليهود والنصارى وأخذه منهم وتأثره بهم، ويعتبر اليهودي الألماني إبراهام جيجر رائداً في هذا المجال ، فقد ألف كتابا بعنوان : " **ماذا أخذ محمد من اليهودية ؟**"(١)

وبرنارد لويس وهو كاتب يهودي غربي له اهتمام بالكتابة عن يهود العالم الإسلامي والإسلام بصفة عامة ، يزعم بلا تردد ، مع إبراهام جيجر بأن اليهود قد ساهموا في بناء الإسلام كديانة وهو يعرض دون مواربة رأي هذه القلة غير المبالية من الكتاب اليهود الذين يزعمون بأن محمداً ﷺ كان قد تتلمذ على بعض علماء اليهود ، الذين أمدوه من وجهة نظرهم بأصول ديانته الجديدة (٢) .

إن الدور اليهودي الذي يزعم كتاب اليهود ، المصهينون فكرياً ، أنه كان عاملاً مهماً في تشكيل الإسلام والتراث الإسلامي ، قد أصبح موضوعاً محبباً منهما لكثير من الباحثين الغربيين منذ أن خرج إبراهام جيجر بدعواه التي تضمنها كتابه المشار إليه "**ماذا أخذ محمد من اليهودية ؟**"

في هذا الكتاب لفت الأخير الأنظار إلى بعض نقاط التشابه أو التلاقي بين كتب اليهود المقدسة كالتوراة وكتب الأنبياء الأخرى التي يتضمنها الكتاب الذي أطلق عليه النصارى فيما بعد العهد القديم وأيضاً الكتب اليهودية الأخرى ككتاب التلمود وكتابات الأحبار بشكل عام .

وعلى الجانب الآخر يدعي المستشرقون النصارى والمنصرون أن المسيحية ، وليست اليهودية هي التي أثرت في محمد وساعدته على تكوين دينه الجديد، مثل هذه الدعوى قد أثارت اهتمام اللاهوتيين البروتستانت بالذات لدراسة هذا الموضوع، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، المستشرق الإسكتلاندي ريتشارد بل والمستشرق السويدى تور أندري ، اللذين كانا أستاذين في مقارنة الأديان ، وفي نفس الوقت قسيسين على مذهب زعيم البروتستانت مارتن لوثر . ولتأكيد هذه النقطة نقول أن قاعدة الدراسات الإستشراقية ككل إنما تقوم على أساس دعوى انتحال محمد ﷺ من كتب اليهود والنصارى في كتابه القرآن وفي تأسيس ديانته الجديدة، الإسلام.

---

(2) Abraham Geiger, was hat Mohammad aus dom. Judenthwme aufgemommen ? (what did Muhammad take from Judaism see Judaism and Islam (New York) (KTAV publishing, House 1970) P.VIII.

(2) Bernard Lewis, The Jews of Islam (London Routledge and Kegan Paul Plc, 1984) PP.68 - 69.

وهناك اتجاه آخر في دعوى تأثر محمد ﷺ باليهودية والنصرانية ، هذا الاتجاه يزعم أهله بأن محمداً لا بد وأن يكون قد تعلم على أيدي معلمين يهود أو نصارى وأن هؤلاء المعلمين لم يكونوا من أحبار اليهود أو كهنة النصارى بل كانوا من أتباع بعض الخارجين على الكنيسة من هؤلاء الذين أسسوا فرقاً أو طوائف بعيداً عن التعاليم الأم واستقلوا من ثم بأنفسهم عنها ولذلك يعتبر النصارى الإسلام بدعة نصرانية سماها صاحبها الإسلام.

وعلى نفس المنهج تقريباً وسعياً وراء الهدف ذاته، فإن الملحدين باتريشا كرون ومايكل كوك، وهما إنجليزيان، ومن أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ظاهراً، ومن ألد وأشد خصوم الإسلام برغم صغر سنهما، فإنهما يزعمان أن " نصيب اليهودية من الإسلام يشكل شيئاً أكثر وأعمق من أن يسمى مجرد إسهامة بسيطة أو تأثير يسير " ، فإن مثل هذا القول لا يعكس في نظر هذين الكاتبين المحمومين الحقيقة، ولا يبين كذلك قيمة الإرث اليهودي من التركة الإسلامية بل إنهما يوغلان أكثر في الدعوى فيقولان " إن الإسلام ما هو إلا نبت خرج من أرومة اليهودية، أو ما هو إلا انحراف وزيغ عن طريق الحقيقة اليهودية "(١).

بعد أن عرضنا باختصار دعوى النحل أو الانتحال من كتب أو تراث الكتابيين أو غيرهم نتصدى لهذه الدعوى الآن بالرد والتفنيد .

أولاً : من القرآن الكريم

لقد عرض الله تعالى دعوى كفار مكة بأن محمداً قد أخذ القرآن، عن غير الله تعالى وفندها وذلك بعدة طرق منها: أن المصدر البشري الذي كان يغمز به كفار مكة لم يكن من أهل اللسان العربي يقول تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾ (النحل : ١٠٣) .

ولا يفوتنا أن نبين أن الله تعالى قد قدم لهذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **قد نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ . (النحل : ١٠٢) . فالله تعالى يقرر في الآية الأولى أن القرآن الكريم منزل من عند الله، نزل به جبريل الأمين، وثبته في قلب خير المسلمين، ثم نقشه الرسول ﷺ في صدور الصحابة فحفظوه وصانوه وأدوه بدورهم كما هو إلى الأجيال المؤمنة . فالرحمن إذن هو الذي علم القرآن ، وليس الإنسان هو مؤلف الفرقان .

---

(1) See Patricia Crone and Michael cook, Hagarism , (Cambridge university pres, 1977) P. 6, and Brnard Lewis, The Jews of Islam, PP 68 F.

وأمآ في الآية الثانية فإنهم كانوا يروجون لفكرة أن القرآن من تعليم بشـر ، ولمـا لـم يكـن للعرب عهد بمثل هذا الكلام في شعرهم ونثرهم جميعاً فإنهم ظنوا بأنه لابد وأن يكون من كلام غير العرب، فتناقضوا في حكمهم إذ قال لهم الله كيف لمحمد أن ينقل عن شـخص غير عربـي هذا الكلام العربي المعجز ، بمعنى آخر أن الذي يترجم عن غير لغتـه لا يمكـن أن يبـدع إلـى هذا الحد الذي تعدى حدود الممكن في التنظيم والبيان وفـي العلـوم الكثيـرة التـي يشـتمل عليهـا القرآن.

وفوق ذلك، وقبل ذلك، فإن العرب لم يكن لهم اهتمام باللغات، وما كان محمد يعرف أي لغة أخرى غير العربية كما هو واضح من سيرته ﷺ، ومن التاريخ العام للعرب في الجاهليـة، وفـي صدر الإسلام . وفي نفس النسق والسياق يقول الله تعالى : ﴿ **وقالوا أسـاطير الأولـين اكتتبهـا فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الـذي يعلـم السـر في السـموات والأرض إنـه كـان غفـوراً رحيماً** ﴾ (الفرقان : ٥ - ٦) .

ويقول الله تعالى في **نفي** إمكان وجود مثل هذا القرآن على يد بشر: ﴿ **قل لئن اجتمعـت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القـرآن لا يـأتون بمثلـه ولـو كـان بعضهـم لبعـض ظهـيراً** ﴾ (الإسراء : ٨٨) . و ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا علـى عبدنـا فـأتوا بسـورة مـن مثلـه وادعـوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها النـاس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (البقرة : ٢٣ - ٢٤).

هاتان الآيتان تنفيان وجود أي كتاب يماثل القرآن الكريم، أو يدنو منه بلاغة وعلماً وتأثيراً في النفس ، وتستحث من يدعي غير ذلـك على الإتيان بمثلـه كلـه، أو بعضـه، أن يؤيـد دعـواه بإبداع المثل بنفسه، أو بمعونة غيره، ولو كان عموم عباقرة الإنس والجن . والمعروف نفسيا أن التحـدي مـن عناصر الإثارة والتحفيز ، واستدعاء القلق العقلي والتوتر النفسي اللذين هما من شروط الإبـداع في أي عمل أدبي أو فكري ، والمعروف كذلك أن تحدي الشـعراء بعضهـم لبعـض ومنافسـتهم في إنشاء القريض من وراء شعر المدح ، والفخر ، وشعر النقـائض، وكثـير مـن أبـواب الشـعر العربي ، لكن الاستجابة للتحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن كانت منعدمة لأن القرآن الكريم فـوق طاقة الإنسان ولا يقع قط في مضمار أهل الشعر والأدب .

وهناك منحى آخر في منهج الرد القرآني على المعارضين للقرآن، وهو منحى الاستشـهاد بمحصلة المقارنة" بين ما هو إلهـي ومـا هـو غـير إلهـي، يتجلـى هـذا فـي قولـه تعـالى : ﴿ **أفـلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** ﴾ (النساء : ٨٢) . أي لـو كان القرآن من تأليف محمد، أو غيره لوجـدوا فيـه تناقضـا ومخالفـة للواقـع وللتـاريخ وللفطـرة الإنسانية، ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً** ﴾ (الكهف: ١- ٢).

فالقرآن الكريم قيم ومستقيم في أسلوبه ومعانيه ومراميه وفي طبيعته ودعوته. وانطلاقاً من إشارة القرآن إلى اللسان غير العربي في آية سورة النحل نقول إن كتب اليهود والنصارى لم تكن قد ترجمت إلى اللغة العربية إلا بعد عدة قرون بعد وفاته ﷺ وبعد انطباع القرآن في ملايين الصدور والمصاحف ، هذا فضلا عن أن النصوص الكتابية لم تكن منتشرة أو متداولة بين جماهير اليهود والنصارى أنفسهم ، بل كانت متكتمة وهذا التكتم كان من الأسباب المساعدة على تحريفها وتبديلها ، يقول تعالي ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ (البقرة : ٧٩) ، هذا ولم يكن اليهود والنصارى يحفظون كتبهم في صدورهم حتى نقول باحتمال النقل الشفهي منها ، ثم إن النصارى كانوا فرقاً متناحرة وطوائف متناكرة وكنائس متباعدة ومتلاعنة في أفكارها وخططها ، كما أن اليهود كانوا منغلقين على أنفسهم يستأثر كبير أحبارهم بنسخة الكتاب المقدس دون سائر اليهود .

إنه لا يسع أي منصف إلا التسليم بأن القرآن هو كتاب الله تعالى نزل به جبريل على رسول الله ﷺ النبي الأمي الذي لم يقرأ كتاباً ولم يسطر مذكرة أو دفتراً ولا عرف بطلب العلم أو مدارسته قط .

تكلم الله تعالى عن اليهود في مواضع كثيرة جداً من القرآن الكريم ، وأكثر الأسماء التي استعملها القرآن ، في الإشارة إلى اليهود هي " **بنو إسرائيل** " وأقل الألفاظ استعمالا في الإشارة إليهم هي لفظة " **اليهود** " هذا بالرغم من أن هذه اللفظة " اليهود " كانت قد أطلقت على اليهود في العصر الجاهلي[١] .

"لفظة يهود" ظهرت في القرآن الكريم ثماني مرات فقط في ثلاث سور مدنية في آيات وسور متباعدة ولنعطي هنا بعض الأمثلة على ذلك ، يقول تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ (البقرة:١١٣). هذه الآية تخبر عن الصراع الدائر والدائم بين اليهود والنصارى الذين يدعي كلا منهما أنه على الحق وأن خصمه على الباطل .

---

(١) انظر جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ـ دار العلم ـ بغداد ـ النهضة ـ ١٩٧٠) صـ٦ صـ٥١١ وما بعدها وانظر أيضاً :

Heimirich Speyer " Yahud " Bernard Lewis et. al. (ed.) The Encyclopaedia of Islam new edition (leiden, E-J. Brill, London Luzac and Co. , 1971) vol , 4 P. 1147 .

والمعنى المراد من إبراز مثل هذا الصراع بين الفريقين أن كلاهما مطعون في موقفه وشهادته من الإسلام فهما وإن اشتركا معاً في الكيد للإسلام، لا يتفقان فيما بينهما على شيء؟ وفي الآية المائة والعشرين من نفس السورة يقول تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ .

والملة هنا بمعنى الديانة، أو الهيئة الاجتماعية، والنظام العام، وهذا الوصف القرآني لموقف كل من الفريقين ، اليهود والنصارى، من الآخر يعبر أيضاً عن روح التسامي والتعالي عند كل منهما تجاه الآخر، فكلتا الديانتين في تقدير أهلها عنصريتان متعاليتان ، وقد فند القرآن دعواهم الخصوصية والأفضلية دون البشر بقوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ (المائدة : ١٨).

بعد ذلك مباشرة دعا القرآن الكريم أهل الكتاب أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي بشر به أنبياؤهم ، وألزمهم الحجة في ذلك ، فقد طال بهم الأمد وبَعُدَ ما بينهم وبين الأنبياء . ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (المائدة : ١٩) . فأهل الكتاب كالعرب وكل الخلق مدعوون للإسلام، والإسلام إنما جاء لكل البشر لا للعرب فحسب.

من هذه الآيات التي جاء فيها ذكر اليهود والنصارى ، آيات تحذر المسلمين من اتخاذ أولياء من دون المؤمنين وألا يوادوهم إن كانوا محاربين أو مضطهدين للمسلمين كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (الممتحنة:٨ ـ ٩).

ذكر ابن كثير في تفسيره أن عمر بن الخطاب قد اعترض على أبي موسى الأشعري لتعيينه أحد النصارى كاتباً بالدولة الإسلامية وأمره أن يعزله في الحال[١] . ولكن ينبغي أن نوضح نقطة مهمة هنا وهي أن عمر رضي الله عنه لم يرفض تولية نصراني منصب الكاتب لقاعدة شرعية، وإنما مراعاة لشئون الدولة الإسلامية في الوقت الذي ينبغي أن تصان فيه

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ـ تحقيق محمد علي الصابوني (بيروت ـ دار القرآن الكريم ١٤٠٥ هـ / ١٩٨١م ط١ ، صـ٥٢٦ف وما بعدها.

أسرارها، ويحافظ على هويتها الإسلامية، فقد كانت الدولة في هذا الوقت في حاجة إلى هذا الحزم ، وإلا فقد أجاز النبي ﷺ الاستعانة في بعض الشئون بغير المسلمين من الكتابيين، بل ومن المشركين إذا اقتضى الأمر ، وعمر بن الخطاب نفسه في بعض الظروف الأخرى قد ولي كثيراً من الذميين مناصب في الدولة في وظيفة كاتب أو غيرها من المواقع الرسمية في الدولة(١) .

وقد استعان النبي ﷺ بدليل مشرك كان يهديه الطريق عند الهجرة(٢)، كذلك سأل النبي ﷺ كاتبه الخاص زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية ، لغة اليهود حتى يترجم له من العبرية ويترجم عنه ﷺ إليها وذلك على سبيل التواصل معهم والانفتاح عليهم(٣).

يقول أبو الحسن الماوردي في الأحكام السلطانية أن الذمي يمكن أن يصل إلى رتبة وزير في الدولة الإسلامية(٤) وقد أشرنا من قبل واستشهدنا بالقرآن الكريم على أن ولاية الكافر مشروطة بعدم عداوته وحرابته للمسلمين ، وهذا التحذير، أعني من موالاة اليهود والنصارى، إنما هو خاص بالمحاربين منهم وليس لعامة اليهود أو النصارى . إن سماحة الإسلام الدينية مضرب المثل في التاريخ الديني على الإطلاق يقول تعالي : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ (التوبة : ٧) .

أشار القرآن الكريم ثلاث مرات إلى اليهود تحت لفظة " هودا " قال تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (البقرة : ١٣٥). و ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (البقرة : ١٤٠) . و ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (البقرة : ١١١) .

ولفظة هوداً مرادفة للفظة اليهود . وفي الآية الأولى رد على أهل الكتاب الذين كانوا يحاولون خداع المسلمين وتشكيكهم للانصراف عن الإسلام ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، ولسنا

---

(١) أبو الحسن البلاذري ـ فتوح البلدان ـ تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) صـ ١٩٣ ، وأيضاً جواد علي ـ المفصل ـ جـ٦ صـ ٦٠٢

(2) Muhammad Ibn Ishaq , The life of Muhammad, a translation of Ibn Ishaq's sirat Rasul Allah , by Guillawaine (Oxford, Oxford university press, 1978) , p- 223 .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ، ص ٤٦٠

(٤) أبو الحسن الماوردي ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية (القاهرة ـ الحلبي ـ ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م) صـ ٢٧.

ندري علىَ وجه القطـع أي الفريقيـن اليهـود أو النصـارى كـان يـروج لهذه الدعـوى الباطلـة ؛ ودعوى أن الهداية قاصرة فقط على أهل الديانتين ، وعلى أي حال فقد أشار القرآن الكريم إلـى تقاذف اليهود والنصارى بالتهم وإلى التشكيكات المتبادلة بينهم وأن كل فريق منهما كان مجمعاً على أن ديانته هي الأصل وهي المنجاة ، وقد خاطبهما الله تعالى بأنهما لـن يكونـا علـى الحق إلا إذا أقاموا التوراة والإنجيل يقول تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتـى تقيمـوا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم مـا أنـزل إليـك مـن ربـك طغيانـاً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ (المائدة : ٦٨) .

ويتفق المفسرون للقرآن مع مؤرخي ومقارني الأديان بأنه لا يمكن لليهود والنصـارى أن يقيما التوراة والإنجيل دون الإيمان بمحمد ﷺ وقبول الإسلام[١] .

واستعملت كلمة يهودي مرة واحدة في القرآن الكريم ، وفي قرينة الحديـث عـن إبراهيـم عليه السلام الذي برأه الله من أن يكون يهودياً أو نصرانياً أو مشـركاً ، بـل حنيفـاً مسلماً قانتـاً لله، يقول تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ومـا كـان مـن المشركين ﴾ (آل عمران : ٦٧) . وقـد اسـتعمل النبـي ﷺ كلمـة يهـود فـي حديثـه ، يقـول ابـن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعـاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم :

ونص الوثيقة التاريخية هو بالاختصار الذي يوضح موضوعنا

" بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنيـن والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهـاجرون من قريش على ربعتهـم يتعـاقلون بينهـم ، وهـم يفـدون عـانيهم (أسـيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ... وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمـن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإنه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ؛ وإنكم مهمـا اختلفتـم فيـه مـن شـيء ، فإن مرده إلى الله عزّ وجل ، وإلـى محمـد ﷺ ؛ وإن اليهـود ينفقـون مـع المؤمنيـن مـاداموا محاربين ؛ وإن يهـود بنـي عـوف أمـة مـع المؤمنيـن ، لليهـود دينهـم ، وللمسلمين دينهـم ، حواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه ، وأهل بيته ، وإن ليهـود

---

(١) انظر ، ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ، طبعة صبيح ١٣٨٤ هـ ، الإعـلام بمـا فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهـار محاسـن ديـن الإسـلام ، وإثبـات نبـوة نبينـا محمـد عليـه الصلاة والسلام ، تحقيق أحمد حجازي ، القاهرة ، دار التراث العربي ، ١٩٨٠ ، صـ٢٣٧ وما بعدها .

بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ... وإن بطانة يهود كأنفسهم ؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ؛ وإنه لا ينحجز على ثار جُرح ؛ وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا (أي على الرضا به) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة(١) .

لقد تكرر لفظ اليهود في هذه الوثيقة التاريخية النادرة والتي أقرت حق من سموا في العصر الحديث بالأقلية واعتبرتهم خلايا طبيعية في جسم الأمة الجديدة وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ؛ وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ؛ وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ؛ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ؛ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ؛ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ؛ وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فأنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة " .

أما بالنسبة للفعل **تهود وهاد** بمعنى أصبح يهودياً فقد استعملا مرة واحدة في القرآن كذلك، وقد ورد الفعلان في سياق الحديث عن التوراة يقول تعالى : ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ (المائدة ٤٤) .

ولا بد ونحن نتتبع الألفاظ القرآنية المستعملة في الإشارة إلى اليهود أن نبين أولاً المفهوم اللغوي لكلمة " هاد ".

"**هاد** " بمعنى عاد وتاب ورجع ، و" **الهود** " التوبة والتهود التوبة والعمل الصالح قاله ابن الأعرابي ، وهاد يهود هوداً ، وتهود تاب ورجع إلى الحق فهو هائد وقوم هود مثل حائك

---

(١) ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ تحقيق طه عبد الرءوف سعد (بيروت ـ دار الجيل ـ بدون تاريخ) ٢ صـ ١٠٦ - ١٠٨.

وحوك ، قال أعرابي : إني امرؤ من مدحه هائد . ومعنى قوله تعالى : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك وأقررنا بالذنب وطلبنا المغفرة وهو في معنى ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ (البقرة : ٥٤) . وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ (البقرة ٦٢) . ففرق بين الإيمان وبين اليهودية ، وبين المؤمن واليهودي

قال زهير بن أبي سلمة :

سوى ربع لم يأت فيها مخافة * ولا رهقاً من عابد مُتَهوّد**

قال صاحب لسان العرب " **المتهود** " المتقرب ؛ والمتهود المتوصل إلى شيء يريده بهوادة . ويهود اسم للقبيلة قال الشاعر :

أولئك أولى من يَهُود بِمِدحة * إذا أنت يوماً قُلْتَها لم تُؤَنَّب**

وقيل إنما اسم هذه القبيلة يهوذ فعرب بقلب الذال دالا . لكن ابن سيدة يضعف هذا التوجيه[١] .

وذكر صاحب اللسان أنهم قالوا اليهود بإدخال الألف واللام فيها على إرادة النسب وهم يريدون اليهوديين ، وفسروا قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ (الأنعام : ١٤٦) على أن معناه دخلوا في اليهودية.

وهوّده أدخله في اليهودية ، قال ﷺ : " **كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه** " رواه أحمد بالمسند جـ ٣ / صـ ٤٣٥ والطبراني في الكبير ٨٢٧ - ٨٣ والبيهقي ٧٧/٩ ، ومعناه أنهما يعلمانه دين اليهودية والنصارى ويدخلانه فيه .

وفي هذه القرينة نقول : " **الهوادة** " اللين والرفق وما يرجى به الصلاح بين القوم ، وفي الحديث " **لا تأخذه في الله هوادة** " أي لا يَسْكُنُ عند (انتهاك) حد الله ولا يُحابي فيه أحداً ، والتهويد والتهود الإبطاء في السير واللين والترفق ، وكذلك التهويد في المنطق أي الساكن يقال غناء مُهَوَّد ، وهود الرجل إذا سكن أو غنى وهود بمعنى اعتمد على السير ، والتهويد النوم وتهويد الشراب إسكاره ، وهوده الشراب إذا فتره وأنامه والتهويد الترجيع بالصوت في لين والهوادة : الرخصة ، والمهاودة : الموادعة ، والمصالحة والمماثلة ، والمهود: المطرب المُلْهِي[٢] .

---

(١) ابن منظور ـ لسان العرب (بيروت ـ دار صادر ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م) جـ٣ صـ ٤٣٨ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر .

يقول البيروني وهو مقدم في علم مقارنة الأديان (ت. ٤٤٠هـ ـــ ١١٤٨ م) إن اليهود أخذوا اسمهم من يهوذا رأس أحد القبائل اليهودية والتي كان لها سلطة الحكم على اليهود ، وقد استبدلت الذال في يهوذا إلى دال جرياً على قواعد اللغة العربية في استعمال كلمات أعجمية[١] ويهوذا هو أحد الأسباط الأربعة (روبيل ويهوذا وشمعون ولاوي) وهم أبناء يعقوب من لايا ، وقد سميت قبيلة يهوذا باسمه[٢] .

وسوف نذكر أن يهودا ويهوذا لها أصل في العبرية كاسم من الأسماء اليهودية . يقول الشهرستاني في سبب تسمية اليهود بهذا الاسم بأنه مأخوذ من هاد أي تاب ورجع .

[وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي رجعنا وتضرعنا ، وهم أمة موسى وكتابهم التوراة ، وهو أول كتاب نزل من السماء ، أعني أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً][٣] .

أما عن مفهوم اليهودية والتراث اليهودي فليس من السهل وضع معنى محدد لها وهذا ما يقرره اليهود أنفسهم ، وإذا أردنا أن نضع معنى عاما يقرّب من فهم اليهودية قلنا "إنها طريقة في الحياة تقوم على الإيمان بأبوة الله لليهود وبنوته لهم وعلى الوحي والأنبياء والتاريخ الطويل لليهود وعلى ما كتبت أيدي الأحبار" . واليهود يضعون أنفسهم في كفة والعالم كله في كفة أخرى ، إذ أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله ، وكل معاملاتهم ومواقفهم تبنى على هذا الاعتقاد .

وفي العالم القديم كانت الكلمة الإغريقية Ioudiasmos أيودياسيمُس تستعمل أحيانا بطريقة مباشرة في التعبير عن العقائد والشعائر اليهودية . كما أن لفظة يهودية استعملها النصارى كإشارة إلى هذه الديانة في أواخر العصور الوسطى وذلك في مقابل ديانتهم النصرانية[٤] . ولقد استقرت كلمة يهودية على ألسنة اليهود وشاعت بينهم في المائتي سنة الأخيرة[٥] .

---

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ تحقيق هيروس جيبون فون وادوارد ساشو (ليبزج ـ أوتو هراموويتس ١٩٢٣) ص ١٥ وما بعدها.

(٢) انظر ابن قتيبة ـ أبو محمد عبد الله بن مسلم ـــ المعارف ـــ تحقيق ثروت عكاشة (مصر ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) صـ٤٠ .

(٣) الملل والنحل ـ بهامش كتاب ابن حزم ـ الفصل في الملل والأهواء جـ٣ ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) انظر المكابيين ٢ : (٢، ٨ : ١ ، ١٤ : ٣٨) .

(5) See Robert M. Seltzer, Jeurish people, Jewish thought, the Jewish experience in History (New York, Macmillan Publishing Co , 1980) . PP. 8 F.

ومن المفيد أن نلفت النظر إلى أن الكلمة الإنجليزية Judaism مأخوذة من الكلمة اللاتينية Judaeus والكلمة الإغريقية Ioudaios المتحولة عن مثيلتها العبرية yahudi ، وكان اليهود يعرفون في المجتمع الإغريقي واللاتيني بأنهم الشعب الذي ترجع معتقداته وتقاليده إلى منطقة Judea جوديا والتي هي بدورها تعبير مأخوذ من جودا ، الجهة الجنوبية للمملكتين اليهوديتين في عصر الكتاب المقدس وما قبله ، هذا وقد تعني الكلمة أيضاً الإشارة إلى أحد القبائل الإثنى عشر اليهودية[١].

ذكرنا من قبل أن اليهودية تعني طريقة في الحياة تقوم أساساً على الإيمان بالله والاستئثار به دون البشر ، إذ أنهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن هذه الديانة مبنية على الاعتقاد في تنزل الوحي ، وعلى الأنبياء ، وعلى التاريخ الطويل لليهود والذي كتبته أيدي الأحبار في مدد متطاولة ومتباعدة . وفي هذه القرينة تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من وضوح عقيدة التوحيد والنبوة في الديانة اليهودية فإن فكرة الألوهية غير واضحة تمام الوضوح إذ تشوبها أفكار تجسيدية لا تليق بجلال الذات الإلهية . وأن فكرة النبوة في اليهودية تكاد تغطي عليها فكرة الكهانة والاعتقاد في الأحبار . فوضع الكهنة والأحبار يكاد يغطي على دور ووضع الأنبياء والمرسلين .

وكلمة Jewry تعني الحي اليهودي أو الشعب اليهودي وهي مأخوذة من الكلمة العبرية يهوه yehauah أو جودا Judah لكن كلمة يهودات Yahudut لا وجود لها في كتب اليهود كلها ولا في التراجم التي تتضمن بعض كتب العهد القديم باللغة الآرامية كذلك ، ولكنها وصلت إلينا من عهد الأحبار والجوانيم والتلمود[٢] .

وبالرغم من هذا فإن الفعل " تهود " (To become a Jew) مذكور في كتاب استير ٨ : ١٧ (القرن الرابع عشر الميلادي)[٣] .

وكلمات يهود ويهودي ويهودت ، قد عرفت في الكتابات اليهودية اللاحقة ، وقد استعملت هذه الكلمات في مدراش Midrash بمعنى أن يعيش الإنسان تحت سلطان الله وأحكام شريعته ، ويبدو أن هذا هو أول استعمال لكلمة يهودية في التاريخ الديني لليهود[٤] ، ولكن مدراش وهذا ما

---

(1) Ibid p. a.

(2) Albert M. Hyamson and A. M. Silbermann (ed.) Vallentine's Tewish Encyclopaediah (London , Vallentine and Co , 1938) P. 634 and 331 .

(٣) نفس المصدر صـ٢١٣ .

(٤) نفس المصدر صـ٣٣٤ .

ينبغي أن نلاحظه جيداً لم تكتب في تاريخ محدد بل إنها تضم مواداً وإشارات تاريخية من عصور متفاوتة و حقب متباعدة جداً .

وإذا كان مفهوم كلمة يهودية قد تحدد بدرجة ما ، على أساس ديني أو تاريخي ديني مستمد من الوحي كما يزعم اليهود فإنه مع هذا لا يثبت على مفهوم معين بل إنه يتسع ويضيق من حيث المفهوم بحسب الظروف والأحوال . وبناء على هذا فقد اختلف علماء اليهود حول أصل اليهودية هل هي ديانة تعددية في الأصل أم هي ديانة وحدانية متطورة باعتبار دعوة إبراهيم عليه السلام أو باعتبار أن الوحدانية هي أصل الفطرة(١) . وإنه لمن الجدير بالتنبيه عليه أن غياب كلمة يهودية كإشارة إلى ملة اليهود وكذلك نصرانية أو مسيحية من القرآن الكريم وكتب اليهود والنصارى حتى رسائل بولس وإنجيل يوحنا المتأخرين يؤكد بوضوح قول الله تعالى ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (آل عمران : ١٩) وقوله تعالى ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ (آل عمران: ٤٨) كما أنه يفسر معنى إعلان جميع الأنبياء والحواريين بأنهم مسلمون وهذا يعني أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد ﷺ .

بنو إسرائيل .

قبل أن نتناول هذا المصطلح أو هذه التسمية من الوجهة القرآنية فإنه يبدو من المناسب أن نلفت النظر إلى نقطة مهمة في هذا الموضوع وهي أن هذه التسمية هي الأكثر مناسبة في التعبير عن اليهود لأنها تنسبهم إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام وهي تستعمل في التعبير عنهم عرقياً إلى حد ما ، وأنها تشير إلى بداية تاريخهم وإن كان تاريخهم يكتنفه كثير من الغموض والاختلاف(٢) ، إن كلمة إسرائيل وهي بالعبرية Am Yisrael ، قد استعملت عدة مرات في سفر التثنية على سبيل المثال : (فاسمع يا إسرائيل واحترز لتعمل لكي يكون لك خير وتكثر جداً كما كلمك الرب إله آبائك في أرض تفيض لبناً وعسلا ، اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد...)(٦ : ٣-٤) .

وقد وردت الكلمة مفسرة بمعناه في سفر التكوين ٣٢ من ٢٤ : ٣٢ .... فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طول الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه . فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك . فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل

---

(١) نفس المصدر .

(٢) دائرة المعارف اليهودية ٣٠٤ .

إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك . فقال لماذا تسأل عن اسمي . وباركه فدعى يعقوب اسم المكان فنيئيل . قائلاً لأني نذرت الله وجهاً لوجه ونُجِّيَتْ نفسي وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النِّسا الذي على حق الفخذ إلى اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النِّسا) . وفي هوشع ١٢ من ١ : ٦ أيضاً فللرب خصام مع يهوذا وهو مزمع أن يعاقب يعقوب بحسب طرقه . بحسب أفعاله يرد عليه في البطن قبص بعقب أخيه وبقوته جاهد مع الله . جاهد مع الملاك وغلب . بكى واسترحمه . وجده في بيتئيل وهناك تكلم معنا والرب إله الجنود يهوه اسمه . وأنت فارجع إلى إلهك . احفظ الرحمة والحقة وانتصر إلهاك دائماً) . ويعني هذا الكلام بوضوح أن إسرائيل صارع الله وغلب الله وأن الله استرحمه بعد أن عرف قوته وخبر شدته تعالى الله عن هذا علواً كبيراً . يقول كاتب التفسير الجديد للكتاب المقدس الطبعة الثالثة أن الله أعطى يعقوب قوة يستطيع بها أن يصارعه هو نفسه حتى لا يغلب يعقوب فيدان[1] . وهذا التفسير أيضاً غير لائق بالذات الإلهية . ولحل هذا الإشكال الذي أوقع اليهود في التجسيد والتجديف يزعم بعضهم أن الذي صارع يعقوب كان ملكاً وليس الله كما يفهم من سفر التكوين في طبعاته المتأخرة أيضاً وعلى هذا تجري أساطير اليهود فقد جاء فيها أن الملاك الذي صرعه يعقوب كان ميكائيل وميكائيل هو كبير الملائكة عندهم والذي تذهب الأسطورة إلى أنه أي الملاك قد اعترف بهزيمته أمام يعقوب وبأنه لم يستطع العودة إلى السماء مرة أخرى لأن يعقوب كان يتحكم فيه وفي الأسطورة نفسها ورد أن يعقوب وصف ميكائيل بأنه لص ومقامر وأن ملائكة السماء قد تجمعت لتخلصه من سيطرة يعقوب حتى يمكن أن يصعد إلى السماء ليحضر التراتيل المقدسة بعد هذه الهزيمة فلم يفلحوا أيضاً . فقد توسل كبير الملائكة إلى يعقوب أن يُطلقه فلم يجبه وتقول الأسطورة إن الملاك ميكائيل قد أقر يعقوب على سرقة البركة من أخيه عيسو الذي وعده أبوه بها وقال الأب ليعقوب أنت الأحق بهذه البركة لأنك غلبت ملائكة السماء وغلبتني[2]. وحتى على فرض صحة أن يعقوب إنما صارع ملكاً من السماء وهو ميكائيل الذي كان اليهود يعتبرونه ملاك الرحمة ورئيساً للملائكة في نفس الوقت فكيف لإنسان وهو يعقوب أن يتحكم في ملك مخلوق من نور وقد أعطاه الله قوة أكثر من قوة الإنسان واختصه الله تعالى بنعمة التسبيح والتقديس. إن الملائكة بحكم طبيعتها لا يمكن أن تغلب أو تؤسر أو تحبس عن أداء الواجب المنوط بها ولا يجوز في حكم العقول

---

(1) New Bible Commentry ed. by D. Guthrie , et. al. P.105 .

(2) Teh legends of the jews by Loues Ginzberg Translated from the Gecman Manuscript by Henrietta szold . Philadelphia the Jewish publication Society of America 1968 vol. 1 pp. 396 F .

الصحيحة أن يتصارع ملك معصوم ونبي معصوم أيضاً، ومن الواضح عن اليهود والنصارى أن كلمة إيل، وهي تتفق في المعنى مع كلمة يهوى[١] والاسم الآخر الذي له وجود في كتاب العهد القديم هو بيت إسرائيل Beth Israel التي هي بالإنجليزية The house of Israel وهذا الاسم يستعمل أيضاً في الإشارة إلى اليهود، وهذه العبارة القرآنية أعني بني إسرائيل تنطوي على مفهوم أسري أو قبائلي، يعكس المفهوم العرقي، الذي يجمع الأفراد المشار إليهم كما ألمحنا إليه من قبل .

يزعم اليهود أن إبراهيم عليه السلام هو أبوهم وأنه هو مؤسس البيت الإسرائيلي والتراث العبري ، وأن الله قد اختاره من بين الناس واصطفاه بالنبوة ، ويزعم اليهود كذلك أن الديانة اليهودية ترجع إلى إبراهيم عليه السلام .

لهذا لم يتردد كتاب العهد القديم أن يجعلوا بداية التاريخ الديني لليهود من وقت ظهور الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب[٢]. ويلاحظ هنا أن اليهود يوقفون التاريخ الإنساني كله على أنفسهم ، ويحولون بين إبراهيم وبين إسماعيل والعرب، وهم بهذا يهودون إبراهيم ويهودون التاريخ الديني للإنسانية كلها .

لذلك فإن الحوادث التاريخية في الكتاب المقدس تبدأ بعبور إبراهيم عليه السلام من ميسوبوتاميا Mesopotamia (العراق حالياً) عبر سوريا أي إلى فلسطين استجابة لأمر الله تعالى له . وإنه مما يلفت النظر أن واضع هذه القصة في التوراة يقصر الحدث على إبراهيم ونسله من قبل اليهود، وكل أحداث العهد القديم تسير على هذه الوتيرة، فهي تقص الحوادث والخبرات الخاصة بالعبرانيين، أو اليهود على أنهم شعب الله المختار الذين اصطفى الله آباءهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأعطاهم وحدهم العهد والوعد ، العهد بأن يكونوا وحدهم أبناءه من دون الناس ، والوعد بأن يسكنهم الله الأرض المقدسة، ويخضع لهم رقاب أعدائهم ويمكنهم من ديارهم وأموالهم ويجعلهم عبيداً لهم[٣] . من هنا غلبت على كتب اليهود الصبغة التاريخية والنزعة العنصرية والحكايات القبلية ، وكثرت من ثم الأخطاء والمغالطات في التأريخ للوقائع والحوادث التاريخية التي تتضمنها هذه الكتب . ومن آثار النزعة التاريخية العنصرية في كتب اليهود أن هذه الكتب كانت قد سطرت على آماد متباعدة وبأيدي مختلفة، وفي ظروف وأحوال غير مستقرة ، والتأريخ للشعوب يحتاج إلى ذهن متفرغ وعقلية راصدة وواعية عن الحدث

---

(1) Dictionary of New testament theology Ed by Colin Brown England Exeter 1975 vol. 2 pp. 304 F

(2) Solomon Nigosian, Judaism the way of holiness (london the Aquaian press. 1986 / 64- 65).

(3) David Brown , The Christian Scriptures (London , Sheldon Press. 1968 , pp. 1).

وهذا كله لم يكن غير متوفرا بالنسبة لكتّاب العهد القديم . وقد رد القرآن الكريم على اليهود في زعمهم بأن إبراهيم هو رأس دينهم وهو أبوهم ومؤسس تاريخهم رداً قاطعاً بقوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ (آل عمران : ٦٧) .

ويقول تعالى ضمن حديث طويل عن بني إسرائيل ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ (طه : ٨٠ - ٨١) .

في هذه المجموعة من آيات سورة طه يخبرنا الله تعالى فيها بأنه أنجى اليهود من تعذيب واضطهاد فرعون لهم داخل مصر، وإخراجه لهم بعيداً عن العمران ، وتخليص الله لهم من الاضطهاد، وتيبيسه البحر من تحت أقدامهم ليسيروا عليه سيراً آمناً لا يخافون معه دركاً ولا يخشون لحوقاً أو أذى من فرعون وجنوده . . وتخبرنا هذه الآيات أن الله تعالى بعد أن جاوز بهم البحر وأوصلهم إلى البرية، لم يتركهم جياعاً أو عطاشا بل أنزل لهم طعاماً من السماء، هو المن والسلوى، كان يأتيهم من فوق رؤوسهم، ولما كان الإنسان يهلك إذا منع منه الماء فجر الله لهم الماء من الحجارة الجامدة ليشربوا ويرووا وقد شق الله لكل قبيلة منهم عيناً يشربون منها وحدهم حتى لا يحدث الاعتداء والاختلاف بينهم بسبب الزحام على الماء أو محاولة الاستئثار به ، ذكر الله تعالى كل هذه النعم والمعجزات التي أجراها أمام أعينهم وعلى يدي نبيه موسى عليه السلام لكنهم ، وقبل أن تجف أقدامهم من ماء البحر الذي جازوه ، عبدوا العجل من دون الله وعموا وصموا عن كل هذه المعجزات الإلهية، وركزوا فقط على المقاصد المادية من لهو ورقص ، ومن جدل وتعنت ، فقد سألوا موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة أو ظاهراً أمام أعينهم لا شيء يستره عنهم، كما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية[1] . ومما ذكره الله عنهم تذكيره إياهم بعداوتهم للحق وإصرارهم على الباطل وبعذابه الذي أوقعه بهم وبتذكيره إياهم عندما أخذتهم الصاعقة لغرتهم وغفلتهم ثم أحياهم الله بعد موتهم وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى . كذلك ذكرهم الله تبارك وتعالى بقوله لسلفهم الذين عاينوا الرسالة وصحبوا الرسولين موسى وهارون عليهما السلام ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ أي قولوا ما آمركم به، أحط به ذنوبكم عنكم، وأغفر لكم ذنوبكم ولكنهم بدّلوا تبديلهم ذلك استهزاءاً بالوحي ومع ذلك فقد خلصهم الله تعالي وأنجاهم وحافظ على حياتهم في التيه، وكما وقاهم من شر فرعون، حفظهم من فرعون وملئه في الحضر . وكان من تبديل بني إسرائيل كما في رواية أبي هريرة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى للآية

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ صـ ١٣٢ .

السابقة دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا منه سجداً (وهم يزحفون) ، وهم يقولون حنطة في شعير ، قال ابن هشام ويروى حنطة في شعيرة[١] وفي هذه القرينة جاء سؤال بني إسرائيل الشاردين لموسى عليه السلام واعتراضهم عليه كما يحكي القرآن : ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادعوا لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (البقرة : ٦١) .

قالوا ذلك بعد أن ألزمهم الله الظلم بتبديل كلامه تعالى، والتعدي لحدوده، وبعد أن حكى لنا أنه فجر الماء من الحجارة لأسباطهم حتى لا يهلكون عطشاً ، ومع ذلك فبدل أن يؤمنوا ويسلموا ويتبعوا استمروا في تعنتهم وأسئلتهم لموسى عليه السلام، ولذلك ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وأحل عليهم غضبه، وذلك لكفرهم بآيات الله التي هي وحيه ومعجزاته، وبقتلهم النبيين دون ذنب، أو جريرة وبظلمهم وعدوانهم .

ذكر الله تعالى في القرآن اسم إسرائيل مرتين وليس مرة واحدة كما وهم المستشرق وينسينك[٢] Wensinck ولتوضيح هذه النقطة نسوق أولا هذه الآية : ﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران : ٩٣) .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا ﴾ (مريم : ٥٨) . في الآية الأولى يبين الله تعالى أن كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل وأنه تعالى لم يضع حرجاً عليهم في اختيار الأطعمة المناسبة، وتفضيل بعض الأطعمة على بعض، إلا أن إسرائيل كان قد حرم بعض هذه الأطعمة على نفسه، فاتبعه بنوه فحرموها على أنفسهم كذلك ، وذلك قبل نزول التوراة ، بدليل أن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ أن يتحداهم إذا كذبوه أن يحضروا التوراة فيتلوها بحضرة الناس، ولكنهم لم يفعلوا ، وفي هذا إلزام لليهود بأنهم يختلقون الأحكام ويستسهلون نسبة الباطل إلى الله عز وجل، وليس يصعب عليهم من ثم تبديل كتابهم وفقاً لهواهم ، ولقد أشار المستشرق هينريتش سبير إلى قوله تعالى : ﴿ ما يود الذين

---

(١) نفس المصدر .

(2) A J. Wensinck ' Israel' The Encyclopaedia of Islam, vol. 2. P. 555 .

كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم وا لله يختص برحمته من يشاء وا لله ذو الفضل العظيم ﴾ (البقرة : ١٠٥) .

ثم قال المستشرق لقد اعتقد اليهود والنصارى أنهم وحدهم هم الذين سيدخلون الجنة دون أن يقدموا الدليل لتأييد هذا الزعم كما طالبهم به القرآن، ثم قال المستشرق أنه منذ هذا التاريخ ومحمد ﷺ يدعو اليهود المعاصرين له بهذا الاسم، أي بني إسرائيل، وهذا الاسم كان قد أطلق عليهم بالفعل من قبل ذلك، وأنه أي رسول الله ﷺ قد استعمل أيضاً كلمة يهود المأخوذة من الفعل هاد[1] المذكور في القرآن الكريم بينما يعني محمد بعبارة " بني إسرائيل " كما بيناه سابقاً وكلمة بني إسرائيل في القرآن وفي السنة تشير إلى نسبة اليهود إلى نبي الله يعقوب وهو إسرائيل والذي بينا أنه مذكور في كتب العهد القديم أيضاً بهذا الاسم.

وردت كلمة بني إسرائيل في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة في سبعين سورة وكمثال على ذلك يقول الله تعالى : **﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بأياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة : ٤٠ : ٤٣)** . ويقول **﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ (البقرة : ٤٨)** .

فالله يذكرهم في كتابه، الملزم لهم، بنعمه عليهم، وعهده الذي أخذه منهم، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وألا يكذبوه ويهجوا عليه .

وهو في مثل هذه الآيات يعرض عليهم بعضاً مما في أيديهم من الحق الذي خلطوه بالباطل ، وبعضاً مما نسوه ، مما طال عليه الأمد ، وبعضاً مما أخفوه ، أو حرفوه ، وذلك بعد أن صفاه القرآن ونقاه من إلحاقاتهم وكسب أيديهم، يقول تعالى **﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم... ﴾** (آل عمران : ٤٨ - ٤٩) وعدد الله الآيات التي أيد نبيه عيسى بن مريم بها كخلق الطير بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، والإنباء بما في البيوت من طعام ومدخرات بإذن الله، ومع هذا فقد كذب قوم موسى بهذه المعجزات إلا قليل منهم كما كذب كثير من العرب محمداً ﷺ في بداية دعوته . ويقول تعالى **﴿ وقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً**

---

(1) Heinrich Speyer " yahud ", The Encyclopaedia of Islam, vol . 4 . p. 1147 .

وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح ﴾ (المائدة ١٢ : ١٣) ، يبين الله لنا في هذه الآية أن الميثاق الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني إسرائيل كان ميثاق الالتزام بالأحكام لا ميثاق الدم والنسب أو الاختصاص بفضل الله دون البشر . فالله تعالى كان معهم ما كانوا معه وهو مع كل من أطاع وأقام شرعه وآزر رسله لقد كان الله معهم لما صدقوا ولكنهم لما قطعوا عرى الموثق الإلهي لعنهم وجعل قلوبهم قاسية متحجرة فتجرأوا من ثم على وحي الله بالتحريف ومناصبة رسله العداء ونسوا ذكر الله استمروا في الخيانة ومعادة الناس وفي حبك المؤامرات والمكر لأهل الحق.

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي عن شهر ابن حوشب الأشعري أن نفراً من أحبار اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فإن فعلت ذلك اتبعناك وآمنا بك .

قال : فقال لهم رسول الله ﷺ ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني ، قالوا : نعم ، قال : فاسألوا عما بدالكم ؛ قالوا : فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل ؟

قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ؛ فأيتهما علت على صاحبتها كان لها الشبه! قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟

فقال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان ؟ فقالوا : اللهم نعم ؛ قال : فكذلك نومي ؛ تنام عيني وقلبي يقظان ؛ قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟

قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ؛ وأنه اشتكى شكوى ؛ فعافاه الله منها ؛ فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله ؛ فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ؟ قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا عن الروح ؟

قالَ : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلمونه جبريل ، وهو الذي يأتيني ؟ قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك ، إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك .

قال : فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ ، أي السحر ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ [١] .

قال ابن عباس أن اسم إسرائيل عند اليهود مثل اسم عبد الله عند المسلمين في المعنى والكثرة والشهرة[٢] . أما اسم يعقوب فقد ظهر في القرآن الكريم ست عشرة مرة ويعقوب هو إسرائيل[٣] ، وسوف نتحدث عن يعقوب في موضع آخر من هذا البحث ، ولكن ينبغي أن نلفت النظر إلى ما وقع فيه المستشرق وينسينك من خطأ في فهم قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ (هود : ٧١) .

يقول وينسينك خطأ لقد اعتبر محمد في البداية أن يعقوب هو ابن إبراهيم[٤] وفي الحقيقة أن النبوءة المشار إليها في القرآن الكريم لا تنص على أن إبراهيم عليه السلام قد أعطي ولدين واحداً بعد الآخر، ولكنها تشير إلى أنه أعطي ولداً، ثم ولداً آخر، يأتي منه وهذا ما لم يفهمه المستشرق وينسينك وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة بما لا يدع مجالاً للشك يقول تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين ﴾ (الأنبياء : ٧٢) .

يقول ابن كثير في تفسيره " النافلة ولد الولد " يعني أن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ (هود : ٧١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ صـ١٣٧ .

(٢) انظر ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ص ٥٧ ، وانظر أيضاً ، القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ، جـ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .

(٣) ٢ : ١٣٢، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ؛ ٣ = ٨٤ ؛ ٦ : ٨٤ ؛ ١١ : ٧١ ؛ ١٢ : ٦ ، ٣٨، ٦٨ ، ١٩ : ٦ ، ٤٩ ؛ ٢١ : ٧٢؛ ٢٩ : ٢٧ ؛ ٣٨ : ٤٥.

(4) A-J. Wensinck " Israel " the Encyclopaedia of Islam, vol. 2 . p. 554.

وقال عبد الرحمن بن أسلم سأل إبراهيم ولداً واحداً فقال : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ فأعطاه الله يعقوب نافلة[١] والنفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل يقول ابن منظور في لسان العرب " والنافلة ولد الولد وهو من ذلك أي من الزيادة على الأصل " ، لأن الأصل كان الولد فصار ولد الولد زيادة على الأصل واستشهد ابن منظور على ذلك بالآية السابقة ثم قال : " كأنه - أي الله تعالى - قال : وهبنا لإبراهيم إسحاق فكان كالفرد له ثم قال : ويعقوب نافلة فالنافلة ليعقوب خاصة لأنه ولد الولد أي وهبنا له زيادة على الفرض له ، وذلك أن إسحاق وهب له بدعائه وزيد يعقوب تفضلا "[٢] .

فات المفسرون هنا أن يشيروا إلى إسماعيل عليه السلام وهو الابن الأول لإبراهيم لأنهم ركزوا على تفسير معنى النافلة وعلى أن المراد بها هو يعقوب ولد إسحاق ، ولكننا نسأل لماذا وعد الله تبارك وتعالى إبراهيم بأنه سيرزقه الولد وولد الولد من سارة ولم يفعل ذلك بالنسبة لإسماعيل وهاجر عليهما السلام ؟ الإجابة هي أن هاجر كانت صغيرة في السن ويتوقع منها الحمل ثانية وثالثة أما سارة فقد كانت متقدمة في السن عنها كثيراً ، وكانت فوق ذلك عاقراً كما جاء في القرآن وكتب اليهود ، لذلك ناسب أن يبرز الله تعالى مدى استجابته لدعاء إبراهيم وتفضله عليه ، وعلى زوجه العاقر المسن ، فذكر أنه سوف يعطيه الإبن وابن الإبن من سارة الموصوفة بالأوصاف السابقة من العقم والتقدم في السن .

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أن إبراهيم عليه السلام إنما رزق ولدين ، الأول هو إسماعيل من السيدة هاجر ، والثاني هو إسحاق من السيدة سارة ، ولذلك حمد إبراهيم الله تعالى حمداً يليق بجلال هذه النعمة فقال : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ (إبراهيم : ٣٩) . فإبراهيم بنص الآية يقول أن الله وهبه على كبر سنه إسماعيل وإسحاق ولم يذكر يعقوب ، لأنه ولد ولده وليس وَلَدُه هو ، وهذا يؤكد المعنى الذي نحن بصدد توضيحه .

بالإضافة إلى ما أوردناه من حديث القرآن عن بني إسرائيل نلخص ما تدور حوله الآيات الخاصة بهم بشكل عام . تتحدث هذه الآيات عن تاريخهم وعن الأنبياء الذين بعثوا فيهم وعن النعم الكثيرة التي أفاضها الله على اليهود ، والكتب التي أنزلها إليهم ، والمعجزات الكثيرة التي أجراها لهم ، على أيدي رسله ، والآيات الحسية والمعنوية التي أشرنا إلى معظمها في الصفحات السابقة كما ذكر القرآن قساوة قلوبهم وغلظ أفئدتهم وصلابة أعناقهم ، وميلهم للعدوانية ، ولمراجعة الأنبياء وعصيان أوامر الله ، وتثبيطهم عن القيام بواجب الدعوة إلى الله ، وقد مر بنا أن الله

---

(١) مختصر تفسير جـ٢/ صـ٥١٥ .

(٢) ابن منظور - لسان العرب جـ١١ صـ٦٧٢ .

تعالى قد يبس لهم البحر وجمد ماؤه ليسيروا تحت أقدامهم عليه إلى العدوة الأخرى ، إلى سيناء وفي صحراء سيناء ظللهم الله بالغمام لأنهم كانوا يضربون في برية قاحلة وتحت شمس حارقة، شراباً وطعاماً لهم وأنزل لهم المن والسلوى حيث كان يسقط في السحر على بعض الأشجار المتناثرة والحشائش المتشبثة، حلو المذاق مثل العسل، فيشربونه ويأكلونه ، والسلوى نوع من الطير، مفرد سلواة، ويقال إنها السماني كما ذكر الله تعالى أنه أنتق عليهم الجبل وعلقه فوق رءوسهم كأنه ظلة يقول تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (الأعراف : ١٧١) .

ومعنى نتقنا الجبل أي رفعناه كما تفسره آية ﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ثم سار بهم موسى عليه السلام في اتجاه الأرض المقدسة وذلك بعد أن تلقى التوراة من الله وأخذ الألواح وعاد إليهم بنور الله بين يديه فوجدهم قد ضلوا طريق الله وأهلكوا أنفسهم بعبادة عجل الذهب الذي صنعه لهم السامري، ألقى موسى بالألواح وأخذ بلحية أخيه الطيب، هارون عليه السلام، لأنه لم يردع ويمنع القوم من عبادة العجل، ومن اللهو ولكنه لما أدرك عذر أخيه وتذكر ما فعلوه فيه هدأ روعه وسكت عنه الغضب واسترضى أخاه واستأنف رسالته ورحلته . ~~بعد ما سكت عنه الغضب عقيب عبادة اليهود للعجل واستضعافهم لهارون النبي أخيه عليه السلام~~ .

أمرهم موسى بأن يؤدوا ما كلفهم الله به من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها أو يتكلفوها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، فأمر الله الجبل فانقلع ثم ارتفع في السماء ، فقال لهم موسى والجبل فوق رؤوسهم ألا ترون ما يقول ربي عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل . قال الحسن البصري : لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً (خوفاً) من أن يسقط ، فكذلك ليس إلى اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، يقولون : هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة[1] . والحسن البصري يحكي عن مشاهدة وخبرة شخصية بلا شك .

فهم قد ابتدعوا هذه السجدة ولم يأمرهم الله بها كما حرموا على أنفسهم أكل لحوم الإبل اتباعاً لإسرائيل الذي نذر أن لا يأكلها إذا شفاه الله من مرضه كما أشرنا إليه من قبل . وهذا من باب ابتداع النصارى للرهبانية . وهنا نقطة مهمة نبرزها في هذه القرينة لأنها تفيد في فهم العقلية الأسطورية لليهود جاء (في بعض كتب اليهود أن المرأة المدنية التي زني بها زمري بن خالويه، والمشار إليها في النص السابق، طعنه فنحاص ابن آل عازر ابن هارون برمحه فنفذه

(١) ابن كثير : مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٦٢ .

ونفذ إلى المرأة تحته ثم رفعهما في رمحه إلى السماء كأنهما طائران في سفود وقال هكذا نفعل بمن عصاك[1] .

ونعود إلى موضوع نتق الجبل مرة أخرى لنلاحظ أن الله تبارك وتعالي قد ذكرها في القرآن الكريم إجمالاً وفي إطار تذكيري لا تاريخي وذلك اتساقاً مع خطة القرآن العامة ، أما تفاصيل الحدث ، والتي قد تكون تعرضت للتدخل البشري فنطالعها في سفر الخروج الإصحاح التاسع عشر : " قال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً . وليغسلوا ثيابهم . ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء . ويقيم للشعب حدوداً من كل ناحية ، قائلا احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا لا تمسه يد بها يرجم رجماً أو يرمى رمياً . بهيمة كان أم إنساناً لا يعيش .

أما عند صوت البوق فهم يصعدون إلى الجبل ..... وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً فارتعد كل الشعب الذي في المحلة . وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا في أسفل الجبل وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه ودخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً . فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم والله يجيب بصوت " (٩-١٩)

ومما جاء في القرآن الكريم عن بني إسرائيل المعجزات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها ونسوق هنا بعضها الآخر ، وهذه المعجزات التي أجراها الله تعالى على يدي موسى ابتداءاً من تحويل العصا الصغيرة والجافة إلى حية كبيرة تلتهم كل ما صنع السحرة المهرة بأمر فرعون مع بقائها على حالها وهيئتها . وجعل يدي موسى تبدو بيضاء للناظرين ، وكذلك المعجزات التي أجراها الله على يد موسى على سبيل العقوبة لفرعون وملئه ، قال تعالى في جحود هذا الحاكم الطاغية وحاشيته : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين... ﴾ (الأعراف ١٣٢ : ١٣٦) .

---

(١) ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، جـ ٢ ، صـ١٥ .

هذا المعراج لكنه

والطوفان الذي أرسله الله عليهم هو المطر الغزير المتلف للزرع والثمار، وهو ليس عاماً كطوفان نوح عليه السلام، بل كان خاصاً بالمصرين وقد يفسر الطوفان بكثرة الموت أو الطاعون يقول البيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسجوراً** ﴾ (الإسراء : ١٠١) .

يقول إن بعض المفسرين يعتقدون أن التسع آيات لا تعني تسع معجزات ولكن تسع وصايا تلقاها موسى من ربه وبلغها قومه ، وهي ألا يشركوا بالله شيئاً ، وألا يسرقوا ، وألا يزنوا ، وألا يقتلوا ، وألا يتعاملوا بالسحر أو الربا ، وألا يرموا بريئاً بإثم ، وألا يقذفوا محصنة، وألا يولوا عند الزحف". ينبغي أن يضاف إلى هذه الوصايا التسع وصية عاشرة وهي تقديس السبت". وقد أخبر الرسول ﷺ اليهود بهذه الآيات[١] ، وربما أيد قول أصحاب هذا التفسير ما جاء في الآية التي بعدها : ﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً** ﴾ (الإسراء : ١٠٢) .

فقد تعني كلمة "**أنزل**" الوصايا باعتبارها كلمات تنزل كما يقول الله تعالى في شأن القرآن الكريم ﴿ **كتاب أنزلناه إليك ليدبروا آياته** ﴾ ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ، لكن يعترض هذا التوجيه أيضاً أن فرعون لم يكن مخاطباً بالآيات التسع أو العشر، بل بني إسرائيل كانوا هم المخاطبين بها، وهذا يجعلنا نقول أن المراد بالتسع آيات هي ما قاله غير واحد من المفسرين وهي : العصا ، واليد ، والسنين ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم[٢] وفي هذه القرينة ينبغي أن نذكر أن الوصايا العشر هي كما وردت في الإصحاح العشرين من سفر الخروج " أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك . لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور لا نشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته .... الخ " ، وفي سفر الخروج أيضاً الإصحاح العشرون وردت هذه الوصية (٢ - ١٧) أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ــ لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ..... الخ " ، وقد وردت هذه الوصية أيضاً باختلاف يسير في سفر التثنية الإصحاح الخامس (٦ - ٢١) .

والاختلاف الرئيس بين هذه النصوص هو في تحديد سبب تقديس السبت ، ففي سفر الخروج أن سبب تقديس السبت هو أن الله استراح فيه من عناء خلق الكون، وهو اليوم السابع

---

(١) ناصر الدين عبد الله البيضاوي . أنوار التنزيل . القاهرة الحلبي ١٩٣٩ جـ ١ صـ٤٩١، وانظر أيضاً ترجمة جورج سيل للقرآن الكريم للآية صـ٢٨٢ هامش رقم ٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال ابن كثير مختصر تفسير جـ ٢ صـ ٤٠٣ - ابن عطية المحرر - جـ ٩ صـ ٢٠٦ - ٢٠٨ .

منَ أيام الأسبوع، وأما بالنسبة لسفر التثنية فإن السبب في تقديس السبت هو خروج المصريين من مصر في هذا اليوم وفي هذا اختلاف بين النصين ، وهناك لا تزال بعض الاختلافات اليسيرة بين النصوص الخاصة بالوصايا العشر . فسفر التثنية مثلا يستعمل كلمة "يرغب" بدل "يطمع"، بالنسبة لوجوب حرمة بيت الجار وممتلكاته وبالرغم من أن هذه الوصايا العشر تمثل قاعدة التشريعات والأخلاق اليهودية، وبالرغم من محافظة اليهود عليها، فإننا نوافق النقاد الغربيين المحدثين في أنها قد خضعت للتحريف بالزيادة والنقص ، إذ أنه بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً فإن عدد الوصايا في كتب اليهود مختلف من موضع لآخر، ومن طائفة لأخرى ، واليهود يتبعون تقسيم التلمود للوصايا، والذي يبدأ بعبارة (أنا الرب إلهك) وهذا التقسيم تستعمله الكنيسة الإغريقية ويستعمله البروتستانت كذلك باستثناء مارتن لوثر.

هذا في الوقت الذي تتبنى فيه الكنائس الأخرى صيغ مخالفة لهذه الصيغة، وقد زاد عدد الوصايا العشر بعدد كتابة العهد القديم والجديد إلى ٣٦٥ وصية هي عبارة عن نواهٍ ، أما العدد الباقي وهو ٢٤٨ فعبارة عن أوامر ، وهذا العدد مقابل لعدد العظام في جسم الإنسان كما يزعمون[1]. ونعود إلى ما سبق أن قلناه بالنسبة لتفسير بعض العلماء للآيات التي أعطاها الله لموسى والتي نقل البيضاوي أنها تسع، وهي بمعنى الوصايا التي أنزلها الله على موسى على جبل سيناء ، وبالرغم من أن الوصايا كما هو معروف بصفة عامة هي عشر من حيث العدد إلا أنه لا يمكن أن نخطئ علماء المسلمين الذين عدوها تسعاً بناءً على التفسير الحرفي للآية . ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ هذا إذا سلمنا أن الآيات بمعنى الوصايا والتعاليم لا بمعنى المعجزات ، وذلك لأننا قد بينا الاختلاف بين اليهود في عدد الوصايا وصيغتها التي وردت بها وترتيبها كذلك .

تكلمت هذه المجموعة من الآيات أيضاً عن النقباء وهم رؤساء أسباط أو قبائل بني إسرائيل الذين نصبهم الله تعالى لجمع شمل اليهود في الشتات لأنهم لم يكونوا قد تعودوا النظام المدني في حياتهم أو الخضوع لقيادة بعينها في شئونهم الدينية والاجتماعية ، يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً... ﴾ الخ (المائدة : ١٢).

لكنهم عادوا فنقضوا وتفرقوا وقست قلوبهم فاستحقوا لعنة الله يقول الله تعالى ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به

---

(١) انظر دائرة المعارف اليهودية صـ ١٧٤ ، J.R .

ولا تزالُ تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (المائدة : ١٣) . فهم لما لم يحفظوا عهد الله وميثاقه الذي واثقهم به لعنهم وقسى قلوبهم فحرفوا تبعاً لذلك بعض كلام الله تعالى ونسوا بعضه .

وأورد الله تعالى في القرآن عناد اليهود ومكابرتهم لنبي لهم بعث بعد موسى عليه السلام وقدحهم في كفاءته ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ (البقرة : ٢٤٦) هذه الآية تبرز أكثر فأكثر عداوة اليهود المستمرة لأنبيائهم وعنادهم لهم .

ثم يبين الله تعالى تلاعبهم وعنادهم لما بعث الله لهم ملكاً بناءاً على طلبهم ، وإخبار نبيهم بهذا الاختيار الإلهي الذي اعترضوا عليه لأسباب وعللات عنادية واهية ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (البقرة : ٢٤٧ - ٢٥١) .

قرر الله تعالى من وجه اعتراض اليهود أنه لا يشترط في الملك أن يكون غنياً ولا أن يكون من الوجهاء والمياسير ، وإنما شرط الملك أو القائد العلم والقوة والتوفيق الإلهي وهذه المؤهلات كانت متوفرة في طالوت .

لقد أعطاهم نبيهم أمارة على اختيار الله لطالوت ملكاً ، أن يأتيهم التابوت فيه سكينة من ربهم الخ كما تكلم الله عز وجل عن ابتلاء الله لجنود طالوت وعن أمارات تنصيبه سبحانه وتعالى لطالوت ملكا ، وذلك حتى يميز بين المؤمنين الصادقين والمشايعين المنافقين وإظهار

كل فريق منهم لما في نفسه تجاه من نصبه الله تعالى ملكاً عليهم ، أما المنافقون فقد قالوا ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ وأما المؤمنون فقد اعتصموا بالإيمان وقالوا ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ، وكان دعاؤهم ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وكانت النتيجة هي أن غلب المؤمنون وخزي المنافقون المخذولون .

﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت .... ﴾ الخ ، وهنا تجدر الإشارة إلى هذا الاختلاف بين القرآن وكتب اليهود في مسألة تابوت العهد أما بالنسبة للقرآن (البقرة : ٢٤٨ ــ ٢٤٩) ، فإن تابوت العهد قد جاءهم من خلال طالوت ، ولكن في كتب العهد القديم (صموئيل الأول ٤ : ٣ وما بعدها) أن تابوت العهد كان قد جاءهم قبل ذلك[1] .

تكلم الله تعالى في هذه الآيات أيضاً عن موقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام ورميهم لمريم بالبهتان العظيم ومحاولتهم قتل المسيح عليه السلام ، كما تكلم عن موقف داود وعيسى بن مريم منهم ولعنتهما لهما بما عصوا ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا إتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء : ١٥٥ ــ ١٥٨) .

﴿ قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (المائدة : ٧٧ ــ ٧٩) .

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات الخاصة ببني إسرائيل والتي تتحدث عن دعوة النبي ﷺ ومحاولاته معهم في سبيل هدايتهم ، وعن موقفهم الجاحد منه ﷺ وعن تحريفهم لكتابهم وكتمانهم نبوة محمد ﷺ . وتضم هذه المجموعة أيضاً حوادث تاريخية وقصص نبوية وأحكاماً وتشريعات أجملها القرآن في قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ (النمل : ٧٦) ..

---

(1) Abraham Geiger, Judaism and Islam, P. 144.

وفي القرآن كذلك إشارات إلى أنه كان في القوم بعض رجال عدول عرفوا الحق ولزموه وآمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه ونصروه[١] وفي نفس المجال نجد أن من المناسب الإشارة إلى سورة بني إسرائيل والتي تسمى سورة الإسراء أيضاً وذلك لما تتضمنه من أحوال بني إسرائيل وما حدث منهم وحل بهم من عقاب الله وتوعده لهم ، وبالرغم من أن هذه السورة تحتوي على آية واحدة تتحدث عن إسراء النبي ﷺ من بيت الله الحرام بمكة إلى بيت المقدس بفلسطين، وهي الآية الأولى من السورة، فإنها تدور في معظمها وبالذات من الآية التالية لآية الإسراء بالحديث عن بني إسرائيل.ونرى أن الله تبارك وتعالى قد ربط بين مكة وبين بيت المقدس بالإسراء برسوله ﷺ ليعلم المسلمين أن اليهود سوف يظلون شوكة في ظهر المسلمين وأن على المسلمين أن يحافظوا على الأرض المقدسة ضد أي عدوان منهم أو من غيرهم ..

وفي مجموعة آيات بني إسرائيل يذكر الله اليهود بنعمه عليهم ونصره لهم برغم ضعفهم ومهانتهم ، وبعهده معهم حتى يدركوا سر الله باستمرار النبوة فيهم وفي أن الخير مرتبط بشكر الله تعالى والعمل بتعاليم الأنبياء واتباعهم ونصرتهم ، وأن محمداً هو رسول الله حقاً شأنه في النبوة شأن موسى والأنبياء جميعاً ، وأن الله تعالى إنما نصر بني إسرائيل وخلصهم من العبودية وكتب لهم الغلبة على أعدائهم ليس لكونهم أبناؤه وأحباؤه أو أن لهم ما يميزهم عن سائر البشر ، وإنما فعل الله كل ذلك لكي يبقى الإيمان عزيزاً ولكي يَعِزَّ الأذلاء، والمستضعفون الذين يتعلقون به ويعرفون كلامه . يقول تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ (البقرة : ٤٠ - ٤٤) .

القرآن هنا لم يستثنهم من الأحكام أو يعفهم من التكليف، ولم يعطهم كذلك أي ميزة تجعلهم فوق البشر، أو يمنحهم خصوصية تجعلهم أبناء الله من دون الناس كما يزعمون هم لأنفسهم.

أهل الكتاب

هذا التعبير القرآني الدقيق أطلقه الله تعالى في القرآن على اليهود والنصارى معاً إحدى وثلاثين مرة في تسع سور منه، في بعض مواضع أطلقه الله تعالى على اليهود والنصارى معاً، وفي مواضع أخرى خص به النصارى وحدهم . وإنه لمن الملفت للنظر حقاً أن هذا التعبير قد

---

(١) انظر القرآن الكريم سورة محمد آية [١٠] سورة الصف [٦] سورة الأحقاف [١٠] .

نزل في آيات وسور متقدمة النزول وقبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة حيث يوجد اليهود . واستعمال مثل هذا التعبير في العهد المكي له مغزاه الواضح وهو أن الإسلام دين يقر ما قبله من الأديان ، ولا يكره أحداً على اعتناقه ، ولا يحط كذلك من شأن أهل الأديان السماوية الأخرى بل ينسبهم إلى كتابهم السابق عليه ويتلطف معهم في الدعوة إليه، لقد ظهر تعبير أهل الكتاب لأول مرة في القرآن في قوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد ا لله بهذا مثلا** ... ﴾ (المدثر : ٣١) فالله قد صنف الناس في هذه السورة وهي من أوائل ما نزل من القرآن حيث نزلت سورة المدثر بعد سورتي المزمل والقلم وهما أول ما نزل من القرآن ، إلى كفار، وأهل كتاب، ومؤمنين ، ومنافقين . وقد نزلت هذه الآية بمناسبة سؤال وجه إلى أحد الصحابة بشأن تحديد عدد خزنة جهنم فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ الآية ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ .

رواه ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب . وروى الحافظ البزار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد غلب أصحابك اليوم ، فقال : " بأي شيء " ؟ قال : سألتهم يهود ، هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ ، قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا صلى الله عليه وسلم ، قال رسول ﷺ : " **أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا (صلى الله عليه وسلم) على أعداء الله ، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة** " فأرسل إليهم فدعاهم ، قالوا : يا أبا القاسم : كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : " **هكذا** " وطبق كفيه ، ثم طبق كفيه مرتين ، وعقد واحدة ، وقال لأصحابه : " **إن سئلتم عن تربة الجنة فهي الدرمك** " فلما سألوه أخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول ﷺ " **ما تربة الجنة** " فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم ، فقال : " **الخبز من الدرمك** " (رواه البزار وأحمد والترمذى)[١] .

وهنا لابد من ذكر نقطتين مهمتين وهما أولاً: من أين جاء هذا الرهط من اليهود إذا كانت السورة من أوائل ما نزل من القرآن في مكة؟ وهي أيضاً تعالج موضوعاً خاصاً بقريش حين ذكر القرآن عدد خزنة النار فعدى أبو جهل على رسول الله ﷺ استهزاءً وراح يحرض قريشاً ضده.

(١) ابن كثير. مختصر تفسير جـ٣ صـ ٥٧٠ - ٥٧١.

نقول إن الآية ترد على مشركي قريش؟وفي نفس الوقت فإنها تجعل في تحديد عدد خزنة النار دليلا على نبوة محمد ﷺ وهو يؤكد ما عند أهل الكتاب بشأن هؤلاء الخزنة وبشأن البشارة بمحمد ﷺ . ونسأل مرة أخرى من هو الرهط اليهودي المشار إليه في الآية وأين كان؟ هل كان في المدينة أم كان في مكة ؟ نحن لا نعرف وجوداً يذكر لليهود في مكة ، ولكن على فرض صحة الرواية يقول أن هذا الرهط الذي سأل أحد الصحابة ربما جاء من المدينة أو اليمن للتجارة أو الزيارة العابرة لمكة حيث أننا نجهل اسم هذا الصحابي الذي سئل ولا نعرف عن هذا الرهط اليهودي شيئاً كذلك .

أما **النقطة الثانية** وهي أنه يوجد في كتب النصارى (العهد الجديد) وبالذات في رؤيا يوحنا ٩ : ١١ إشارة إلى ملائكة النار " ولها ملاك الهاوية ملكاً عليها اسمه بالعبرانية أبدون وله باليونانية اسم أبوليون الويل الواحد مضى هوذا يأتي ويلان أيضاً بعد هذا ".

وفي نفس السفر ١٤ : ٨ - ١١ نقرأ ثم تبعه ملاك آخر قائلا : سقطت سقطت بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها . ثم تبعهما ملاك ثالث قائلا بصوت عظيم.إن كان أحد يسجد للوحش ولصورته ويقبل سمته على جبهته أو على يده فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً في كأس غضبه ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف [يعني المسيح] ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين".

وفي نفس الرسالة (الإصحاح السادس عشر) نقرأ " ثم سكب الملاك الرابع جامه على الشمس فأعطيت أن تحرق الناس بنار . فاحترق الناس احتراقاً عظيماً وجدفوا على اسم الله الذي له سلطان على هذه الضربات ولم يتوبوا ليعطوه مجداً " [١٦ : ٨ - ٩]

وفي كتب العهد القديم استعمل اسم" أبدون"كاسم علم للإشارة إلى المكان الذي أصابه الخراب بالكامل والذي سيلقى بالأشرار فيه .

وفي كتاب شاول استعمل اللفظ بمعنى مسكن الموتى . وفي كتاب دانيال ٧ : ٩ - ١٠ أن جوهر الملائكة جميعا من نار : " كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة نهر نار جرى وخرج من قدامه الوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه فجلس الدين وفتحت الأسفار".

وفي كتابات أحبار اليهود أن لفظ أبدون يشار به أيضاً إلى المكان الخرب والمدمر وهو في معنى كلمة جهنم عندنا[١] وفي هذه القرينة يزعم كاتب مادة اليهود بدائرة المعارف الإسلامية أنه لما كانت " رغبة محمد في أن يخرج بكتاب يزعم أنه موحى إليه ، على الناس جعله في بداية الفترة الثانية من بعثته ، يتكلم كثيراً عن " الكتب " التي سجل فيها كل شيء وقع، أو سوف يقع في هذا الكون"[٢] .

وهذا الزعم لا أساس له إذ أن القرآن قد تكلم في هذه المرحلة التي أشار إليها الكاتب ، كما تكلم في غيرها من مراحل التنزيل عن الكتب والصحف والألواح والأقلام والقراءة والكتابة حتى في المرحلة المبكرة للوحي[٣] . إنه من غير المعقول أن يقال أن محمداً ﷺ لم يكن يعي أن ما كان يأتيه من وحي هو كلام الله ، وأن ما بلغه إلى أصحابه فحفظوه وكتبوه كان هو كتاب الله ، لقد كان النبي ﷺ جد واع وكان الصحابة كذلك جد واعين بأن الله قد أنزل على محمد كتاباً فيه الهدى والنور وأنهم تلقوا هذا الكتاب وتنافسوا في حفظه ، وتباروا في قراءته في مكة وفي المدينة وفي كل مكان . وفي مكة بالذات تحدى الله على لسان محمد عباقرة الخلق جميعاً جنهم وإنسهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن كله أو بعضه[٤] . ولكنهم عجزوا وسلموا بالعجز ولن ينهض أحد للتحدي إلى يوم القيامة . هذا مع ملاحظة أن تعبير *أهل الكتاب* إنما استعمل في قرينة مختلفة ، إذ قد أريد به تذكير اليهود والنصارى بما في كتبهم من بقايا حق ، وتوبيخهم على إهمالهم لما في هذه الكتب من تعاليم . وأنه من الجدير بالإشارة إليه أن هذا التعبير يشير أيضاً إلى وجود بعض العناصر الصالحة بين جماعتي اليهود والنصارى، بغض النظر عن قبولهم للإسلام من عدمه، فإن الإنسان لديه من مخزونات الفطرة ما يساعده على أن يكون إنساناً طيباً سهلا سمحاً على أي دين كان يقول تعالى : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ (آل عمران:٧٥) . وأهل الكتاب هنا هم اليهود على التخصيص ، فهم الذين ينظرون إلى جميع

---

(1) Merrill C.Tenney , (ed.) et. al., The Zondervan Pictorial Encyclopedia of the bible, (USA. The Zondervan Corporation 1975) vol . 1. P.5 .

(2) Heinaich Speyer " Yahud " The Encyclopedia of Islam, vol. 4, P. 1146.

(٣) انظر على سبيل المثال القرآن الكريم ٢ : ٢٣ - ٢٤ ؛ ١٧ : ٨٨ ؛ ٤٢ : ١ ؛ ٤٣ : ٣١ ؛ ٧٣ : ٤ ، ٥ ، ٢٠ وانظر أيضاً :

M.M.. Azami, Studies in Early Hadith Literature (Indianapolis, Indiana, American Trust publications, 1978) pp. 22 ff.

(٤) انظر سورة البقرة ٢٣ والإسراء ٨٨ .

الناس على أنهم أميون أي غرباء ومخالفين لليهود، ومعنى ما دمت عليه قائماً في الآية، أي حذراً وحارساً ومطالباً بحقك، وهذه هي طبيعة اليهود لا ينزلون على الحق بسهولة، ويراوغون ويجادلون ويثيرون الشبه في وجه الحق كما هو حادث اليوم بينهم وبين الفلسطينيين بوجه خاص[١] . ويقول تعالى في نفس السورة : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ (آل عمران : ١١٣) . فالله تعالى يبين لنا أن أهل الكتاب وإن كانوا جماعة واحدة مقابل الأمة الإسلامية فإنهم ليسوا جميعاً على صفة واحدة أو طبيعة واحدة فمنهم القائم بالعدل العامل بآيات الله الذاكر لله عز وجل .

وسجل القرآن أيضاً أن أهل الكتاب طالبوا محمداً ﷺ أن يحضر لهم كتاباً من السماء كشرط للإيمان به وقد أخبر الله تعالى أنه قد أنزل عليه القرآن كما أنزل التوراة على موسى من قبل فلم يؤمنوا به يقول تعالى في الرد عليهم وتوبيخهم : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴾ (النساء : ١٥٣)[٢] .

وبالرغم من كثرة المعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبياء أهل الكتاب والتي شاهدوها وعاشوها لم يلتزموا بأوامر الله فقد حرفوا كلامه وأخفوا بعضه عن الناس وكتبوا بأيديهم كلاماً ادعوا أنه وحياً منزلاً ، كما أن بعضهم قد قتل بعض الأنبياء وكذبوا البعض الآخر، وضايقوهم وطاردوهم ﴿ ولقد أتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ (البقرة : ٨٧) .

هذا تحليل نفسي لموقف أهل الكتاب من الأنبياء فهم يقبلون أو يرفضون هذا النبي أو ذاك إتباعاً لأهوائهم لا إتباعاً لتعاليم ربهم ، وقد قتل بالفعل بعض الأنبياء كزكريا ويحيى[٣] عليهما السلام .

---

(١) د . محمد أبو ليلة القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية مقارنة (المغرب ـ الإيسيسكو ، ١٩٩٨) .

(٢) في تفسير هذه الآية انظر القرطبي ـ الجامع ، جـ٦ وما بعدها ؛ الماوردي ـ تفسير ، جـ١ صـ٤٣١ وما بعدها ، وأيضاً جواد علي المفصل ، جـ ٦ صـ٥٤٧ وما بعدها .

(٣) انظر سورة المائدة ١٣ و ١٤ و ٧٠ .

وفي نفس القرينة ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين وعن التمسك بالباطل وإتباع الهوى قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ (المائدة : ٧٧) .

ومن المفيد أن نلفت النظر إلى أن تعبير أهل الكتاب لا يعني أن اليهود والنصارى كانوا قد أوتوا كتاباً واحداً ، وإنما فقط للإشارة إلى أنهم كانوا من أهل الوحي ، وأن أنبياءهم قد جاءوهم بالكتب أو الصحف ، أو الألواح عن الله تعالى ، فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه أنزل التوراة على موسى والتوراة كما هي في أيدي اليهود ، تتألف من خمسة كتب سوف تتكلم عنها في هذا البحث ، كما ذكر الله تعالى أنه أنزل الزبور على داود (النساء: ١٦٣ ، والإسراء: ٥٥)

وقد أشار القرآن كذلك إلى أنبياء آخرين بعثوا فيهم ودعوهم إلى الله (البقرة : ١٣٦ ؛ ١٤٠ ؛ آل عمران : ٨٤ ، النساء : ١٦٣ ، الأنبياء : ٧٧) .

ومن الجدير بالتنبيه عليه أيضاً أن عبارتي العهد القديم ، والعهد الجديد اللتان أطلقتا على كتب اليهود والنصارى المعتمدة لا ذكر لها في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة ؛ كما أنه لا توجد لدينا أي معلومات تساعدنا في معرفة ما إذا كان هذا التعبير أعنى أهل الكتاب كان معروفاً بين عرب الجاهلية أم لا .

إشارات قرآنية أخرى إلى اليهود

تكلم القرآن الكريم عن اليهود تحت عناوين أخرى غير تلك التي ذكرناها من قبل ، فقد أشار القرآن إلى يعقوب عليه السلام مرة بهذا الاسم أي " **يعقوب** " ومرة أخرى باسم " إسرائيل " كما بيناه سابقاً . وأورد القرآن كذلك خمس إشارات إلى أبناء يعقوب الإثنى عشر ، والذين قسمهم الله تعالى أسباطا أو قبائل أو أمماً ، على سبيل المثال يقول تعالي : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ (الأعراف : ١٥٩ ـ ١٦٠)

﴿ **وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ...** ﴾ (البقرة : ١٣٦ وآل عمران : ٨٤) ﴿ **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً**

أو نصارى قل أنتم أعلم أم ا لله ومن أظلم ممـن كتـم شـهادة عنـده مـن ا لله ومـا ا لله بغـافل عمـا تعملون ﴾ (البقرة : ١٤٠) .

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمـة قـد خلـت لهـا مـا كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * وقالوا كونوا هوداً أو نصـارى تهتـدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بـا لله ومـا أنـزل إلينـا ومـا أنـزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسـى وعيسـى ومـا أوتـي النبيـون مـن ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٣ ـ ١٣٦)

فهاهم أبناء يعقوب يقدمون إسماعيل عليه السلام على أبيهم إسحاق ويجعلونـه فـي مقدمـة ولدي إبراهيم عليه السلام .

وقد ذكر القرآن الكريم قصة يعقوب مع أولاده الإثني عشر وموقفهـم مـن أخيهـم يوسـف في السورة التي تحمل اسم الأخير ، من إلقائه في الجب إلى اجتماعـه بأبيـه وأخوتـه فـي أحـد قصور الحكم في مصر ولكننا لا نستطيع أن نتوسع في ذكـر هـذه القصـة بمحتواهـا التـاريخي والروحي وأبعادها النفسية والاجتماعية كما ذكرها القرآن الكريم .

تكلم القرآن عن مسئولية الأحبار تجاه الانحراف بشعوبهم عن منهج الله ، والخروج بهـم عن تعـاليم الوحـي وهـدي الأنبياء فقد ذكـر اللـه تعـالى أن اليهـود قـد ألهـوا الأحبـار كمـا ألـه النصـارى المسيح عليه السلام والرهبان وأشركوهم مع الله في الحكم والربوبيـة يقـول تعـالي : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً مـن دون ا لله والمسـيح ابـن مريـم ومـا أمـروا إلا ليعبـدوا إلهـاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون أن يطفئوا نور ا لله بأفواههم ويـأبى ا لله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة : ٣١ ـ ٣٢) .

في هاتين الآيتين يقرر الله تعالى أن اليهود والنصارى الذين ألهوا البشر الضعاف الفانين قد استكثروا النبوة على محمد ﷺ وضنوا عليه بالرسالة التي أنزلها اللـه عليـه . وبينمـا يحمـل الله تعالى الأحبار والرهبان مسئولية تأليه البشر أو تقديسهم ، يظهر تعالي ما كان عليه الأحبار والرهبان من فساد ومخالفة لتعاليم الأنبياء في صون الأمانة وفي الزهد والإيثار يقـول تعـالي : ﴿ يا أيها الذين أمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصـدون عـن سبيل ا لله .... ﴾ (التوبة : ٣٤) .

فهؤلاء المشار إليهم في الآية يأكلون أموال الناس بالباطل فيظلمونهم في الدنيا ، ويصدونهم عن سبيل الله تعالي فيظلمونهم في الآخرة ، كذلك حمل القرآن الأحبار مسئولية تحريف الكتب الإلهية بالزيادة والنقصان وبتفريطهم فيها ونسيانهم كثيراً من نصوصها يقول تعالي : ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به .... ﴾ الآية ، ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيدهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ (البقرة : ٧٩).

أما بالنسبة لموقف اليهود من الملائكة فإن القرآن يتكلم أيضاً عن عدواتهم لجبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ يقول تعالي : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (البقرة : ٩٧ ـ ٩٨) .

يخبر الله تعالي اليهود وغيرهم بأن من يعادي ملائكة الله، وهم خلقه ورسله الذين لا يعصونه في أمر قط ، فإنما هو كافر بما أنزل الله على رسله وكافر بالله تعالي، فالإيمان بالملائكة جزء مهم من أركان الإيمان العام الذي أمر به كل الناس . لقد زعم اليهود أن جبريل يعاديهم وأن ميكائيل هو وليهم ولكنهم اختلفوا في سبب العداوة والولاية بالنسبة للملكين ، فبينما تذهب بعض الروايات الإسلامية إلى القول بأن الحوار حول طبيعة ووظيفة كل من جبريل وميكائيل كان قد دار بين الرسول صلي الله عليه وسلم وبعض أحبار اليهود في المدينة ، تذهب بعض الروايات الأخرى إلى أن هذا الحوار كان قد دار بين عمر بن الخطاب وبين أحبار اليهود ثم انتهى الحوار بالنزاع بينهما . هذا ما ساقه البيضاوي في أنوار التنزيل[١] .

بعد أن بينا موقف الإسلام من جبريل وميكائيل كما ورد في القرآن وكتب التفاسير وفي السيرة النبوية وكتب الحديث في الرد على اليهود نوضح الآن موقف اليهود من هذين الملكين من المصادر اليهودية نفسها : " إن اسم ميكائيل ربما يعني عندهم " من هو مثل الله " Who is like God ? " .

يوجد هذا الاسم في كتاب العهد القديم والجديد ، ففي سفر دانيال ١٠ : ١٣ ، ٢٠ يبدو ميكائيل مثل جبريل تماماً ، جسماً سماوياً ولكنه يعطي مسئوليات خاصة كبطل لإسرائيل يدافع عنها ضد الملاك المنافس الذي يختص بالفرس . وهو يقود جيوش السماء ضد القوى الشريرة

---

(١) البيضاوي ـ أنوار التنزيل ط صـ ٣٤٤ ، وقارن ذلك بالترجمة المشوهة التي أوردها .
Abraham Geiger, Judaism and Islam, p. 9 .

في الطبيعة في المعركة الكبرى الأخيرة وهذه الطبيعة الحربية التي تعطي لميكائيل تعززها كتابات يهودية أخرى ... على سبيل المثال : أيوب ١ : ٢٩ ، إستر ٢ : ١ ، أخنوخ ٢٠ : ٥ .

كما أن اليهود يسمونه أيضاً حامي اليهود، ويعطونه مهمة القائم بدور الشفاعة لصالح بني إسرائيل . (دانيال ٦ : ٢) وفي بعض المواضع الأخرى من كتبهم يظهر ميكائيل على أنه الملك الموكل بكتابة الأعمال والأموال، وأنه كان الوسيط أيضاً بين الله وبين موسى على جبل سيناء .

وفي كتب العهد الجديد، وفي رسالة يهوذا بالتحديد، توجد إشارة إلى ميكائيل ونزاعه مع إبليس على جسم موسى عليه السلام الذي لم يعرف عنه أحد شيئاً حتى الآن .

كما جاء في سفر التثنية الإصحاح ٣٤ ، ١ - ٦ (... فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب . ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ...) .

ومما ينبغي أن يكون معلوماً أن التفاصيل الخاصة برفع جسد موسى عليه السلام لم تصل إلينا كاملة، وهذا بسبب الغموض الذي يحيط بموسى في أخريات حياته وبموته ودفنه[1]، كما جاء في آخر أسفار التوراة في الإصحاح المشار إليه آنفاً . نلاحظ أن الأدوار التي أسندت إلى الملائكة في كتب اليهود تتسم بالنزعة الأسطورية، وهي بهذا تعتبر امتداداً طبيعياً للتراث اليهودي بشكل عام، هذا التراث الذي يخلط فيه المعتقد بالأسطوري، والمقدس بالإنساني . ولأن اليهودية ديانة تعتمد على أعمال الكهنة والأحبار ، ولأنه في ظل تعاليم وتقاليد هذه الديانة يتمتع الأحبار بسلطة عليا تدنو من ، بل ربما تتفوق على، سلطة الأنبياء أنفسهم ، أعطى القرآن الكريم وكذلك السنة معلومات دقيقة حول رجال الدين اليهودي تكشف نواياهم السيئة ومواقفهم المتعنتة من رسول الله ﷺ ومن الإسلام . يقول الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾ (البقرة : ٨٧ ـ ٩٠) .

---

(1) Colin Brown (Ed.), Dictionary of View Testestament Theology, vol. I. P. 104.

وتمضي الآيات القرآنية تحاج اليهود وتفند مزاعمهم الباطلة وترد على كل دعوة أثاروها في وجه الحق ، وتذكر تعلاتهم وتبريراتهم المتهافتة، وترد عليهم بالأمثلة التاريخية والحوادث التي جرت لهم، وبالعهود التي أخذها الله عليهم فنكثوها، وغشوا فيها ودلسوا، إتباعاً للهوى وإيثاراً للذات الدنيا وشهواتها، ولذلك نجد الله تبارك وتعالى يصفهم بأنهم قالوا ﴿ **سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم** ﴾ أي تمكن حب العجل وعبادته من قلوبهم، والعجل هنا رمز للمادة ومواطن الشهوات واللذات ، ولحب الذهب وكل ما له تأثير مادي وبيئي في الحياة الدنيا ولذلك يقول الله تعالي لهم : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند ا لله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم وا لله عليم بالظالمين** ﴾ (البقرة : ٩٤ - ٩٥) .

أي إذ كنتم تظنون أنكم تسيطرون على الآخرة كما تسيطرون على الدنيا أو كما تزعمون، فتمنوا الموت ، بمعنى أظهروا حبكم له ، واستعدادكم للقائه . لكنهم لحبهم الدنيا وما فيها يبذلون أقصى جهدهم للسيطرة عليها ناسين حظهم من الآخرة، فهم لا يذكرون البعث ولا الحساب وإلا لتمنوا الموت أي عملوا بحيث يكون الموت لهم كأمنية يحبون تحقيقها ولا يخشون وقوعها . ولكنهم عاشوا في الدنيا بعيداً عن طريق الآخرة ، إنه يفصلهم عن الدنيا برزخ لا يستطيعون أن يجوزوه .

لقد تركز اهتمام اليهود على امتلاك ناصية الحياة الدنيا والمهارة في شئونها ولذلك يقول الله تبارك وتعالي : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر وا لله بصير بما يعملون** ﴾ (البقرة : ٩٦).

سجل القرآن الكريم مكر اليهود برسول الله صلى عليه وسلم عندما شعروا بخطر قيام دولة الإسلام في المدينة وإرساء قواعد الأمة الإسلامية بها ، حيث قال جماعة من الأحبار لرسول الله ﷺ إن كنت نبياً حقاً فاذهب إلى بلاد الشام لأنها أرض الأنبياء وأرض المحشر ، يريدون أن يتخلصوا منه ، فرد الله تعالى عليهم وإخبار نبيهم ﷺ بقوله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ (الإسراء : ٧٦ ـ ٧٧) .

ولقد حاول اليهود أيضاً أن يفتنوا رسول الله صلى عليه وسلم عن الوحي الذي أنزله الله عليه ليبدل فيه ويغير على طريقتهم يقول تعالى في نفس السورة (٧٣ - ٧٤) ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا** ﴾ . إنهم يحاولون دائماً ولن ينطفئ لهم في هذا المجال بالطبع ،

أن يحولوا المسلمين عن دينهم ووحي ربهم بالإغراء بالمال ونحوه وبإثارة الفتن والشبه بينهم، تمضي هذه المجموعة من الآيات القرآنية المترابطة لتبين مكر أحبار اليهود وقلقهم الدائم من ظهور الحق، ومحاولتهم الدءوب في الإطاحة برسول الله صلى عليه وسلم وأمته وملته، فإن اليهود يتصورون أنهم أول الدنيا وآخرها، ولا يجوز أن يزاحمهم فيها أحد غيرهم، ولذلك ختم الله تعالى تلك الآيات بقوله : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ (الإسراء: ٨١) . ولقد ناسب هذا المقام أن يعبر الله تعالى عن دوام الأمة الإسلامية وتمكن نبيها رسول الله ﷺ بقوله تعالي عقيب الآيات الأولى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ (الإسراء ٧٨ ــ ٨١) . وهذه الآيات فيها دلالة على التمكين والاستمرار للإسلام .

وإنه لمن الجدير بالاعتبار أن نعيد النظر في الروايات الخاصة بغزوة تبوك وتعلقها المزعوم والتي ترد أسبابها إلى أحبار اليهود . فقد قيل أن آيتي (الإسراء ٧٦ و ٧٧) التي نقلناها فيما سبق نزلت في اليهود حيث قالوا لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها** ﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث" هذا الحديث أخرجه البيهقي عن عبد الله بن علم وضعف ابن كثير قائلاً أن النبي ﷺ غزا تبوك عن أمر الله لا عن أمر اليهود[١] .

وهذا هو الحق فما كان للنبي ﷺ وهو رجل الدولة المؤيد بالوحي والمشهود له بالقوة العقلية والنفسية أن يسمع لليهود وبسرعة يقوم بغزوة تبوك ليصل من خلالها إلى الشام، فإن موقف اليهود المتعنت ومكرهم وخداعهم لرسول الله ﷺ كان أوضح من أن يجعل الرسول ﷺ يتأثر بمشورتهم.لقد قيل إن الآية السابقة قد نزلت في كفار مكة عندما هموا بإخراج النبي ﷺ من بين أظهرهم فتهددهم الله تعالي بقوله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا** ﴾ .

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ـ صـ٢ ـ صـ٣٩١ .

ولا مانع أن تكون الآية قد نزلت في شأن هؤلاء وهؤلاء جميعاً باعتبارهم معاندين للحق كارهين للنبي ﷺ متآمرين ضده وضد أمته وملته .

استعمل القرآن أيضاً عبارة " قوم موسى " في التعبير عن اليهود قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين.... ﴾ (الأعراف : ١٤٨) .

الحديث القرآني في هذه الآية يدور حول ضلال بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي صنعه لهم السامري من حلي المصريين، التي استعاروها ولم يردوها إلى أهلها، بل ذهبوا بها فجمعها السامري منهم في أرض سيناء وصنع منها عجلاً تمثالاً مجوف الوسط، كان الريح يدخل من فيه ويخرج من دبره، بحيث تخيله اليهود عجلاً حقيقياً، أو أن السامري كان عنده بعض المعرفة بالسحر التقطها من المصريين، فخيل لهم أن العجل يتحرك بأمر السامري الكذاب فعبدوه. وحتى لو كان هذا المسخ عجلاً حقيقياً لما كان جديرا بالعبادة، وبخاصة أنه كان في وسط اليهود نبيان هما موسى وهارون ، وقد شاهد اليهود كذلك ما أجراه الله أمام أعينهم من معجزات، ولكن الله ختم على أسماعهم وأبصارهم غشاوة فهم لا يؤمنون[١] .

أطلق القرآن على اليهود كذلك اسم الطائفة ، وأهل الكتاب ، وأهل التوراة ، ووسمهم بالإرجاف، والنفاق، وبالسفاهة في الرأي، وبخاصة عند اعتراضهم على تحويل القبلة .

أورد القرآن الكريم إشارات أخرى إلى اليهود بالضمائر، ولذلك فإن طالبها يحتاج إلى جهد للتعرف عليها، على سبيل المثال قال تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشبهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ (البقرة : ١١٨) . وقوله تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (الجمعة : ٥) .

أحبار اليهود هم موضوع هذه الآية . وفي القرآن توجد أيضاً إشارات إلى حوادث خاصة باليهود سواء بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، وذلك كما في قوله تعالي : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ فإنها تتضمن الإشارة إلى أحد عباد بني إسرائيل الذين كانت أعمارهم أطول من أعمار أمة محمد ﷺ وبالتالي استطاعوا أن يعبدوا الله أكثر فأعطى الله للمسلمين ليلة القدر وجعل قيامها خيرا من عبادة ألف شهر .

---

(١) انظر ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٦٣٥ ، وج٢ ، صـ٥١ .

الجزية وأهل الذمة

اعترف الإسلام بالأديان السماوية السابقة عليه وطالب معتنقيه بالإيمان بها ، بالكتب وبالرسل السابقين ، وجعل ذلك ركناً من أركان الإيمان الكلي الذي لا يتحقق إسلام المسلم بدونه ، وأقر الإسلام ضمن الحقوق كذلك حقوق أصحاب الديانات السابقة في حرية الاعتقاد والكلمة والعبادة والمعاملات ... إلخ ، فلقد أقر الإسلام هؤلاء على ما هم عليه إذ لم يكلفهم الخروج عن معتقداتهم ولم يجبرهم على اعتناقه أو العمل بتعاليمه أو التحاكم إلى شريعته ، لا جزئياً ولا كلياً ، ولكي يثبت الإسلام هذه الحقوق ويحافظ عليها شرع لهم تشريعات خاصة بهم والتي تقرر حقوقهم وتنظم علاقاتهم بالدولة الإسلامية ، جاء ذلك في القرآن والسنة ولم يترك الله تبارك وتعالى تلك الحقوق رهناً برضا الحاكم أو المشرع المسلم أو غضبه ، أو للظروف المتغيرة ، اعتبر الإسلام اليهود والنصارى والمجوس أهل ذمة أي أصحاب عقد ديني ملزم تقع على الحاكم مسئولية تطبيقه وحياطته بكل رعاية وعناية .

وأوجب الإسلام على الرعية أن تلتزم به وتنفذه . ومن الآداب القرآنية في معاملة الآخر أن القرآن سماهم " **بأهل الكتاب** " و " **بقوم موسى** " ، و" **بأهل التوراة** " ، و" **أهل الإنجيل** " ، وأطلقت عليهم السنة **أهل الذمة** ولم يطلق عليهم القرآن ولا السنة لفظ " أقلية " أو " أقليات " كما هو الحال بالنسبة لأوربا في نظرتها إلى " الأقليات " في بلادها لقد قرر الإسلام قاعدة عامة عظيمة الأثر الديني والاجتماعي والقانوني والتشريعي في حياة الناس وتماسك المجتمعات وهي " **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** " تلك القاعدة الذهبية لم تمارسها الشعوب الأوربية والأمريكية بصورة كاملة حتى الآن ، لقد أقر الإسلام الاختلافات القائمة في المعتقدات والعادات والتقاليد بين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي .

ذكر الله تعالي في القرآن وجوب قيام أهل الذمة بأداء الجزية التي هي في مقابل الزكاة بأنواعها المختلفة والتي أوجبها الله تعالى على المسلمين والجزية مقابل الحماية والخدمة التي تقدمها الدولة الإسلامية وكما شدد الإسلام في وجوب تحصيل الجزية منهم فقد تشدد أيضاً في تحصيل الزكاة من المسلمين إلى درجة تكفير مانعها ومحاربته . إلا أن القرآن لم يبين مقدار هذه الجزية ولا وقتها ولا على من تجب تحديداً وترك التفاصيل الخاصة بها للرسول ﷺ وللخلفاء من بعده وكذلك لحكام المسلمين يقدرونها بحسب الأحوال المعيشية والظروف الاجتماعية والسياسية للوطن وقرر الإسلام أنه لا جزية على كبير في السن ولا على العاجز أو الطفل أو المرأة ولا جزية إذا لم يستطع المجتمع المسلم حماية اليهود والنصارى الذين يعيشون على أرضه من كل الوجوه . هذا القدر من الكلام كاف في إظهار مفهوم وفلسفة الجزية في الإسلام ولأن التفصيل في هذا الموضوع ليس من مقتضيات بحثنا .

التوراة

التوراة هي موضوعنا هنا ، والتوراة هي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام وضمنه التشريعات اللازمة لصلاح بني إسرائيل ، قوم موسى و ذكرت التوراة في القرآن الكريم هكذا نصاً ثمان عشرة مرة ، وذكرت بطريقة غير مباشرة عدة مرات، على سبيل المثال لا الحصر، يقول الله تعالى : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ... ﴾ (آل عمران : ٣ - ٤) و ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل... ﴾ (آل عمران:٤٨،٤٩) . وقال تعالى : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (آل عمران : ٥٠) . وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (آل عمران : ٦٥) . وقال أيضاً : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ (المائدة : ٤٤) .

وذكر الله تعالى التوراة باسم الكتاب باعتبار أنها كانت مكتوبة ونزلت في الألواح . كما يتبن من الآيات المذكورة ، وبالإضافة إلى ما سبق ذكره يقول الله تعالي : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله علي بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ (الأنعام : ٩١) .

والقراطيس: جمع قرطاس، وهو ما يكتب فيه من صحيفة ونحوها، وكان يتخذ من ورق البردي الذي كان يصنع في مصر قديماً . أنشد أبو زيد لمخش العقيلي يصف رسوم دار محبوبته وآثارها .

كأن . بحيث استودع الدار أهلها *** مخط زبور من دواة وقرطس

ومن قوله تعالي : ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنّ هذا إلا سحر مبين ﴾ (الأنعام :٧)[١] . ومعنى تجعلونه قراطيس أي تجعلونه صحفا متفرقة تكتبون فيها ما شئتم مما جاء في التوراة، وتخفون منها ما شئتم عن الناس بحسب هواكم، وفي هذا الكلام تضمين لمعنى التحريف حيث أن التوراة لم تكن بأيدي جميع اليهود وإنما كانت

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ١٧٢/٦ ، والراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن صـ ٦٦٦ .

توجد منها نسخة واحدة توضع تحت يد الكاهن الأعظم ولا تخرج من عنده إلا في المناسبات الدينية الكبرى يقرأ بعضاً منها على الجمهور ثم يطويها ويعيدها إلى مكانها وبالتالي فقد سهل تحريفها بل وحرقها وضياعها كما هو ثابت تاريخياً(١) .

ويقول تعالى معبراً عن التوراة بلفظ الكتاب : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ (الأنعام : ١٥٤) .

بعد أن أوضح تعالى معالم الصراط المستقيم ، وهي تعاليم القرآن الكريم وأمر باتباعها ووصى بها من أراد النجاة ، عطف عليه كلامه في مدح التوراة وأنها كانت مصدراً إلهياً لهداية اليهود في وقتها ، وهو كقوله تعالي : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ (الأحقاف : ١٢) .

ومعنى (تماما على الذي أحسن وتفصيلاً) أي آتيناه الكتاب المنزل وهو التوراة تاماً كاملاً مستوفيا كل ما يحتاج إليه قومه في شريعته ، ومن مفسرات هذه الجملة القرآنية قوله تعالي : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة ﴾ (الأعراف : ١٤٥) أي من كل شيء يختص بقومه وينفعهم حتى مجيء الرسول الآخر ثم الرسول الخاتم وهو محمد ﷺ إذ الديانة اليهودية ديانة محلية لها حدودها الزمنية والجغرافية المعينة . ومعنى على الذي أحسن" أي بعد أن بلغ موسى الكمال ونضجت استعداداته الخلقية والنفسية والعقلية لتلقي الوحي فهو لم يتلقه إلا بعد بلوغ الكمال الروحي والخلقي ، وقد تلقى نبينا محمد ﷺ الوحي على رأس الأربعين وقد شهد له حتى أعداؤه بالكمال قال ابن رواحه في مدح خير المرسلين صلوات الله وسلامه عليه :

ثبت الله ما أتاك من حسن *** في المرسلين ونصراً كالذي نصروا(٢)

ويقول تعالى تعبيراً عن التوراة باسم الكتاب أيضاً : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا ﴾ (الإسراء : ٢).

فقيد الكتاب بموسى تلقينا ، وببنى إسرائيل تطبيقاً وتكليفاً ، وأسند الله عز وجل الكتاب إلى موسى باعتبار أنه هو متلقيه لا غيره وقد مرت بنا بعض الآيات التي فيها مثل هذه الإشارة ومن الملفت للنظر حقاً قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ (٤٨) .

---

(١) انظر ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، والشهرستاني ، الملل والنحل ، ورسالة نورشيف عبد الرحيم Ibn Hazm on Jews and Judaism ، وكتاب د. محمد محمد أبو ليلة (القرآن والأناجيل بالإنجليزية).

(٢) ابن كثير مختصر ـ تفسير ، جـ١ ، صـ ٦٣٤ و ٦٣٥ .

الفرقان قيل أنه الكتاب أي التوراة المشتملة على الحلال والحرام والوعظ والتذكير ، أنزل الله تعالي التوراة على موسى كما هو معلوم ومشهور فكيف يقرن اللـه تعالي هارون بموسى في قرينة إنزال الوحي ؟ يبدو أن ذكر النبي هارون في هذه القرينة جاء لشدة ملازمته لأخيه موسى عليهما السلام ومؤازرته له وليس لأنه شاركه في تلقي التوراة ، وقد يكون السبب في ذكرهما معاً جاء على جهة الاقتران بين الإسمين باعتبار تلقي الأول لها ودعوة الثاني بها إلى الله تعالى .

فقد طلب موسى عن الله عز وجل أن يشد عضده بأخيه وأن يجعله له وزيراً قال تعالي : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هـارون وزيرا ﴾ (الفرقان : ٣٥) . فهو هنا قد أثبت الوحي لموسى فقط والوزارة لهارون ﴿ .... واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ (طه : ٢٩ ـ ٣٢) .

فموسى هنا قد طلب من الله أن يشرك معه هارون لا في الوحي وإنما في تحقيق الأمر والنهي ، ولكن آية يونس تنص على أن هارون كان يوحي إليه ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾ (٨٧) . ومثله قوله : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ (طه : ٤٨) .

ومن سياق الآية يمكن القول بأن الوحي الإلهي إنما جاء بالأمر الإلهي لموسى وهارون أن يتخذا لقومهما من مصر بيوتاً أي موطنا للإقامة فيه والوحي هنا خاص بهذا الأمر وليس هو بمعنى تلقي الكتاب عن الله تعالي وهذا من باب قوله تعالي : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني . إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ (القصص : ٧) .

أوحى الله تعالى إليها بهذه الكلمات إلقاءاً في الروع أو حديثاً من الملك أن تفعل كذا وكذا ولم يوح إليها بكتاب أو برسالة تؤديها إلى الغير وتقوم على تطبيق أحكامها .

وفي هذه القرينة نقول أن معنى قوله تعالي ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي اجعلوها مساجد قاله ابن عباس رضى الله عنه وقال الثوري عن إبراهيم كانوا أي اليهود خائفين في مصر فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وألا يجاهروا بصلاتهم وفي هذا دليل على أهمية الصلاة وذلك لأن الله لم يبح لهم تركها في وقت الخوف والاضطهاد . ويبدو أن هذا العصر كان يتسم بالدكتاتورية المطلقة وبالتضييق على الحريات ولم يكن يسمح لأصحاب الدين المخالف أن يمارسوا شعائر دينهم ولذلك ناسب أن تأتي دعوة موسى بعده ﴿ وقال موسى ربنا إنك أتيت

فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (يونس : ٨٨ ـ ٨٩) .

ومعنى أن يتخذوا من بيوتهم قبلة يعني مكاناً للصلاة . يتوجهون إليه في صلاتهم . هل أمروا بالتوجه إلى الكعبة؟ هذا غير واضح من الآية .

ذكرنا أن الله تعالى جعل هارون في خدمة أخيه موسى، وأن موسى عليه السلام قد تلقى التوراة وحده، ومما يوضح هذا الأمر ويجليه قوله تعالى : **﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾** (الأعراف : ١٤٢ ـ ١٤٥) .

من إعداد الله تعالى لموسى عليه السلام لتلقي الوحي، وهداية بني إسرائيل واعد الله موسى ثلاثين ليلة صامها موسى عليه السلام صوماً، ربما كان أشبه بصوم المسلمين من حيث عدد الأيام وطريقة الصيام، ولما أتم موسى الثلاثين ليلة أمره تعالى أن يكملها بعشر حتى تبلغ الأربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فذهب بعضهم إلى أن الثلاثين هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة وبهذا يكون قد كمل الميقات بيوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام . وفي مثل هذا اليوم يعني يوم النحر ، أكمل الله الدين لمحمد ﷺ ، وأتم على أتباعه النعمة كما في قوله تعالى : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾** (المائدة : ٣) .

نزلت يوم النحر والنبي ﷺ معهم واقف على عرفات وكان هذا اليوم يوم جمعة أيضاً كلم الله تعالى موسى عند الميقات الذي وقته له تبارك وتعالى فلما سمع موسى صوت الله يكلمه طمع في النظر إليه عز وجل فأخبره عز وجل أن الرؤية غير ممكنة لعدم قدرة المحل **﴿ قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾** (الأعراف : ١٤٣).

علق الله تعالي الرؤية على إمكان استقرار الجبل في مكانه عند تجلي اللـه عليه ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ يعني تراباً أو شقوقاً وبهذا يكون قد تبرهن على أن رؤية موسى لله كانت مستحيله ، ومجرد تجلي الله للجبل الذي هو أقوى في الخلق من موسي عليه السلام جعل موسى يخر صعقاً أي مغشياً عليه أو ميتاً على نحو يعلمه الله ، وذلك من ثقل ما أصابه من نور ، فلما أفاق موسى عرف أنه لم يكن له أن يسأل الرؤية لأن الله سبحانه منزه عن أن تحيط به الأحداق والأزمان والآفاق ، وقد اعتبر موسى أن سؤاله كان بمثابة الذنب وأن إيمان المؤمن لا يتطلب رؤية الله كشرط للإيمان، وأن طلب اليهود من نبيهم موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة كان تعنتاً ومكابرة ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[١] . ولا داعي هنا للاجتهاد في تحديد طبيعة هذا التجلي ومداه، أو إمكان الرؤية من عدمها، فإنه سيبعد بنا عن الغرض المحدد لهذا البحث، كما أنه لا داعي لتحديد فعل الله في التجلي بالإصبع أو بالخنصر أو بالسبابة وغير ذلك[٢] مما يدخل في باب التجسيد . وفي الآيتين (١٤٤ ، ١٤٥) من نفس السورة يخبرنا الله تعالي أنه اصطفى موسى وحده برسالاته وبكلامه، وبالألواح التي كتب له فيها سبحانه وتعالى "*من كل شيء*" ، وهذا يؤكد أن موسى كان وحده هو المخاطب بالوحي وبالرسالة وأن هارون كان نبياً صاحب بلاغ وليس بصاحب رسالة ووحي . وفي الأحاديث التي رواها أصحاب الصحاح في باب التفسير منها استعملت كلمة التوراة أكثر من مرة .

ومعنى الكلمة مفهوم، وأما عن أصل الكلمة فقد قيل هي من ووراة قلبت التاء الأولى فيها واواً وأصلها من الورى، وقال الفراء في كتابه في المصادر: التوراة من الفعل التفعلة ، كأنها أخذت من أوريت الزناد ووريتها فتكون تفعلة في لغة طيء لأنهم يقولون في التوصية توصاة وللناصية ناصاة . ومنه استوريت فلاناً رأيه أي طلبت إليه أن ينظر في أمري فيستخرج لي رأيا أعمل أو أنتفع به[٣] .

وبناء على هذه النصوص والآراء تكون كلمة توراة عربية ما دام لها تعريف واشتقاق في اللغة العربية ويكون معناها الاصطلاحي من ثم هو الوحي الذي أعطاه الله كتابة لموسى النبي عليه السلام ، والمسمى في القرآن بهذا الاسم وكذلك بالكتاب والفرقان والألواح كما مر بنا . وتكون مناسبة التسمية أن الله أنزل التوراة فيها نور وأنه أنزلها في قرينة إشعال النار ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ (القصص : ٢٩) والتجلي الإلهي للجبل ، ولكن جمهور علماء المسلمين على أن الكلمة عبرية الأصل، ولا بأس إذا صح أن يستعمل القرآن بعض الألفاظ غير

---

(١) ابن حزم ـ الفصل في الملل والنحل ، جـ٥ ، صـ ٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر ابن كثير ـ مختصر تفسير ـ ج٢ صـ ٤٨ .

(٣) لسان العرب ١٥ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ، والراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن صـ ١٦٨ .

العربية التي أنزلها الله تعالى في وحي سابق ويكون ذلك من باب الجواز اللغوي كما جاز أن يذكر الله تعالى أسماء الأنبياء ، وبعض الأحكام والأوامر والنواهي التي تضمنتها كتب سابقة .

وكلمة التوراة تعني في العبرية مجموعة أشياء تدور كلها حول مفهوم واحد، فهي بمعنى التعليم، والتعلم ، والتعاليم، وهذه الكلمة تطلق على الكتب الخمسة المنزلة على موسى عليه السلام، وهي الخمس الأولى في ترتيب كتب العهد القديم، وقد تشير الكلمة إلى التراث الشفهي أو التلمود عند اليهود الذين يعتقدون أنه أيضاً من المنزل على موسى، والذي هو عندهم له قوة إلزام التوراة إن لم يكن أشد . ويفهم من كلام ابن تيمية أن لفظ التوراة قد يطلق ويراد به كل كتب اليهود[1] . ذكر الله تعالى في القرآن كيفية إنزال التوراة على موسى عليه السلام والمكان الذي نزلت فيه والمادة التي كتبت عليها (الأعراف : ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤) وذكر الله تعالى كذلك بعض محتويات التوراة كقصص الأنبياء وبعض قواعد الحلال والحرام و لكن بالطبع بعد تصفيتها وتنقيتها مما شابها من آثار تحريفات أيدي البشر الآثمين .

لغة التوراة وموضوع التحريف

لم ينص القرآن الكريم على لغة التوراة صراحة، ولكن الله تعالى قد قرر بوضوح أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه، وبما أن اليهود كانوا يتكلمون العبرية فالتوراة التي نزلت إليهم كانت من ثم عبرية اللسان ولابد، ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (إبراهيم : ٤) وهذا مؤكد بحديث رسول الله ﷺ " كان أهل التوراة يقرءونها بالعبرية ثم يفسرونها لأهل الإسلام بالعربية " وفي الحديث أن رسول الله ﷺ أمر زيداً بن ثابت أن يتعلم العبرية ليترجم له ومنه إلى يهود المدينة[2] .

اعتبر القرآن التوراة وغيرها من الكتب المقدسة السابقة على الإسلام بأنها " كلام الله " وقد أخبر الله تعالى في القرآن أن بعض اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴿ أفتطمعونَ أن يؤمنُوا لكُم وقد كانَ فريقٌ منهُم يسمَعونَ كلامَ الله ثُمَّ يحَرِّفُونَهُ من بعد ما عقلوهُ وهم يعلمون ﴾ (البقرة : ٧٥) .

كلام الله المذكور في هذه الآية هو التوراة التي أنزلها الله عليهم . ومعنى "*يحرفونه من بعد ما عقلوه* " . أي أنهم يعدون على الكلام بالتحريف اللفظي والمعنوي ليتم لهم التملص من

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج٣ صـ ٢١٨ ، وأبو ليلة ، القرآن والأناجيل (بالإنجليزية).

(٢) صحيح البخاري ٢٥/٦ ، وانظر ابن حزم ـ الفصل في الملل والنحل ، جـ٢ ، صـ١٣ .

الحكم فيجعلون الحرام حلالاً ، والمنكر معروفاً والحق باطلاً وهكذا ليوافق هواهم ويبرر أعمالهم . " *وهم يعلمون* " أي وهم متعمدون قاصدون لا جاهلون ضالون ولذلك غضب الله عليهم .

ومما حرفوه عن علم وقصد نعت النبي ﷺ الذي بشرت به التوراة وكتب الأنبياء الأخرى . وهؤلاء الذين كانوا يحرفون كلام الله عن عمد يقابلهم هؤلاء الجهلة الذين يقول الله فيهم ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون** ﴾ (البقرة : ٧٨) كانوا يتكلمون بالظن الذي هو ضد العلم في مسائل ادعوا كذباً أنها في كتاب الله وأنها مأخوذة منه، بعد ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيدهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ (البقرة : ٧٩) هؤلاء المحرفون كانوا يكتبون كلاماً يزورونه من عند أنفسهم ثم يدعون أنه كلام الله من التوراة ، وذلك لأن التوراة كانت في حوزة الكاهن الهاروني لا يطلع عليها غيره كما ذكرناه من قبل[١] . وعبر القرآن عن المادة التي كتبت عليها التوراة بالألواح ، وفي التأكيد على كتابتها كاملة عبر عنها بالصحف وبالنسخة .

ذكر المسعودي : أن أول من تكلم بالعبرانية هو إبراهيم الخليل عليه السلام وذلك بعد أن خرج من قريته المعروفة بأور كشد من بلاد كوثي من خنيرث وهو إقليم بابل وصار إلى حران من أرض الجزيرة وعبر الفرات هو ومن معه إلى الشام ، وأثناء عبوره تكلم بلغة جديدة فسميت لهذا السبب بالعبرانية لحدوثها عند عبوره إضافة إلى العبر وبها أنزلت التوراة ويضيف المؤرخ الكبير المسعودي أن للإسرائيليين الذين كانوا يقيمون بالعراق لغة سريانية تعرف بالتّرجوم (Taragom) . والترجوم يفسرون بها التوراة من العبرانية الأولى لوضوحها عندهم وقرب مأخذها ولفصاحة العبرانية وتعذر فهمها على كثير منهم[٢] .

شعيرة السبت والتعاليم الخاصة بالحلال والحرام في الأطعمة عند اليهود

ورد ذكر السبت كشعيرة يهودية وما يتصل به من أعمال في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ (البقرة : ٦٥ ـ ٦٦) .

---

(١) انظر القرطبي جامع ٢ / ١ وابن كثير مختصر ١ / ٨٠ ، ٢ والإمام أحمد في المسند ٤ / ١٣٦ وما بعدها ، البخاري صحيح ١ / ٢٣٥ والقرطبي جامع ١ / ٣٣٢ .

(٢) التنبيه والإشراف ، صـ ٧٨ - ٧٩ .

الخطاب في هاتين الآيتين لليهود يذكرهم الله تعالى بما عرفوه من حال أهل القرية الآثمة، الذين اعتدوا على حرمة الله وجازوا أمر الله في يوم السبت الذي أمرهم الله بتقديسه فكان جزاؤهم أن جعلهم الله قردة خاسئين، سواء في ظاهرهم أو باطنهم، أو أنه تعالى جعلهم في الباطن كالقردة الدنيا وفي الظاهر في صورة الأناسي[١] .

جاءت قصة أصحاب القرية الخاسئة في سورة الأعراف في سياق تعديد نعم الله على بني إسرائيل وجحودهم لهذه النعم وعصيانهم لأوامر الله : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً ا لله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ (الأعراف ١٦٣ ـ ١٦٦) .

في هذه الآيات أوحي الله تعالي إلى رسوله ﷺ أن يسألهم عن قصة أصحاب مدينة أيلة من حواضر البحر الأحمر والتي كان يعمل أهلها بالصيد، فابتلاهم الله عز وجل في مهنتهم، ومعنى ذلك أن الله يطلب إلى نبيه ﷺ أن يسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرته عن أهل قرية أيلة وما حدث منهم من احتيال ، وما حدث لهم من نكال ووبال بسبب عصيانهم، كان العمل محرما على اليهود في يوم السبت ولكنهم احتالوا على الكسب الحرام فيه فلقد ابتلاهم الله تعالي بان جعل الحيتان والسمك العظيم يأتيهم على سطح الماء ظاهراً في المتناول، وذلك يوم السبت المحرم عليهم الصيد فيه فاحتال اليهود للصيد بأن وضعوا الشباك في يوم الجمعة ليلاً أو حفروا للسمك حفراً يدخلها ولا يستطيع الخروج منها حتى إذا ما غابت شمس السبت ذهبوا فجمعوا الأسماك وأكلوا منها واتجروا فيها ولذلك حذر النبي ﷺ من التحايل والالتفاف على أوامر الله تعالى .

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدني الحيل** "[٢] قال ابن كثير إسناده جيد ورواته ثقاة .

واضح أن الله تعالي كان قد جعل عقوبة المنتهكين لحرمة السبت أن جعلهم قردة وخنازير . وذلك بسبب فسقهم وتعديهم على حرمة الله .

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ١ / ٧٣ ، و القرطبي ـ الجامع ١ / ٤٣٩ .

(٢) ابن كثير مختصر تفسير ٢ / ٥٨ وفيه تخريج الحديث .

أما عقوبة مرتكبي هذا الجرم أي خرق السبت في اليهودية فهو الموت ، جاء في سفر الخروج ٣١ : ١٢ - ١٨ " وكلم الرب موسى قائلاً وأنت تكلم بني إسرائيل قائلاً سبوتي تحفظونها لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدسكم فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، من دنسه يقتل قتلاً . إن كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها ، ستة أيام يصنع عمل وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب كل من صنع عملاً في يوم السبت يقتل قتلاً . فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهداً أبدياً . هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد . لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفس . ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله " .

هذا ما جاء في التوراة بشأن السبت ، إنه مرتبط بالخلق ، وباليوم الذي أتم الله فيه الخلق، ثم استراح فيه وتنفس، ومن ثم أمر الله تعالى بتقديسه" ، وقد رد الله تعالي هذا الكلام المحرف الذي لا يليق بجلال الذات الإلهية المنزهة عن التعب وطلب الراحة والتنفس ابتغاء الاسترخاء وطلباً للراحة بعد التعب يقول تعالي : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (ق : ٣٨) .

خلق الخلق في ستة أيام ونفى التعب واللغوب وطلب الراحة عن نفسه عز وجل . أما عن علة تقديس السبت وجعله يوم عطلة فيقول (موسى بن ميمون) القرطبي الأندلسي في كتابه دلالة الحائرين (٥٣٠ - ٦٠٣ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٥ م) " العلة في تأكيد شريعة السبت وكونها رجما " . وسيد النبيين (موسى) قتل عليها وهي ثالثة وجود الإله ، ونفى الثنوية إذ النهي عن عبادة سواه ، إنما هو لتقرير التوحيد . وقد علمت من كلامي أن الآراء إن لم تكن لها أعمال تثبتها وتشهرها وتخلدها في الجمهور لم تبق فلذلك شرعنا بتفضيل هذا اليوم حتى تثبت قاعدة حدث (حدوث) العالم وتشهر في الوجود إذا عطل الناس كلهم في يوم واحد ، فإذا سئل ما علة ذلك كان الجواب : لأن الرب في ستة أيام خلق . وقد جاء في هذه الشريعة علتان مختلفتان لأنهما لمعلولين مختلفين وذلك أنه قال في علة تعظيم السبت في الأوامر العشرة الأولى (في الوصايا العشر) قال : لأن الرب في ستة أيام خلق . وقال في مشنه التوراة واذكر انك كنت عبداً في مصر ولذلك أمرك الرب إلهك بان تحفظ يوم السبت[١] . وهذا صحيح ، لأن المعلول في القول الأول وهو تشريف اليوم وتعظيمه كما قال : " ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه "[٢] ، هذا هو المعلول التابع لعلة : إن ستة أيام .... الخ . أما تشريعنا به وأمرنا نحن

---

(١) التثنية ٥ : ١٥ .

(٢) خروج ٢٠ : ١١ .

بحفظه فهو معلول تابع لعلة كوننا عبيداً في مصر الذي لم نكن نخدم باختيارنا . ومتى شئنا ولا نستطيع العطلة فشرعنا بالعطلة والراحة لنجمع الأمرين : اعتقاد رأي صحيح ، وهو حدث (حدوث) العالم الدال على وجود الإله بأول خاطر وأسهل نظر ، وتذكر أفضال الله علينا في إخراجنا من تحت أثقال المصريين(١). فكأنه إفضال عام في صحيح الرأي النظري وصلاح الحال البدني "(٢) .

في هذا النص حاول ابن ميمون أن يعلل تقديس اليهود ليوم السبت وهو بهذا يكون ممن يقولون بوجود العلة في الحكم ، وعنده أن هناك علتان أو سببان في جعل يوم السبت مقدساً علة بالنسبة لله وهي أنه تعالي استراح من الخلق في يوم السبت فجعله لذلك يوماً للراحة وقد بينا أن ذلك لا يجوز على الله لأن الله لا يصيبه التعب نتيجة العمل كما أنه لا يحتاج إلى راحة، وعلى كل الأحوال فالله لا يكف عن العمل ، عمل الخلق وعمل التدبير .

أما **العلة الثانية** في تحريم السبت في نظر صاحب دلالة الحائرين فهي تخليص الإسرائيليين من استعباد المصريين لهم وجعلهم أحراراً يعملون أو يستريحون بمحض اختيارهم، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن الأمر بتقديس السبت جاء بعد خروج بني إسرائيل من مصر وبقائهم في التيه مدة طويلة، وقد كانوا أحراراً في التيه يحيون حياة بدوية بدائية ، لا يعملون و لا يتكسبون، وليس من المعقول في ظل هذه الظروف أن يأمرهم الله بعدم العمل في السبت بسبب تخلصهم من عبودية المصريين ، ولو قال ابن ميمون أن خروج الإسرائيليين من مصر ونجاتهم من فرعون قد وافق يوم سبت، لذلك أمر الله اليهود بتقديسه لكان أحرى، وأقوى في تقرير العلة .

وفي هذه القرينة ينبغي أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أن النصارى كانوا يقدسون السبت أيضاً فقد انتشرت النصرانية أولاً في الوسط اليهودي، وكان أتباع المسيح من اليهود يعتمدون على الكتب اليهودية ويستعملونها حتى بعد ظهور ما يسمى بكتب العهد الجديد ، ويوم السبت هو أول أيام الأسبوع في التقويم النصراني وهم يتخذونه أيضاً يوم عطلة وقد استمر تقديس السبت لدي النصارى حتى فترة زمنية متأخرة كما يتضح من النص التالي :

---

(١) خروج ٦ :٧ .

(٢) دلالة الحائرين ـ ترجمة حسين آتاي ـ القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ بدون تاريخ صـ ٣٨٧ ـ ٣٨٨، وانظر أيضاً خروج ٢٠ : ١١ ، ٦ : ٧ .

" أيها الرب القوي الذي خلق العالم من خلال عيسى المصلوب وأمر بتقديس السبت كذكرى لخلق الكون لأنك استرحت فيه من عملك .... أنت أيها الرب الذي أخرجت آباءنا من مصر ... وأمرتهم بأن يحافظوا على تقديس السبت "[١].

وقد لوحظ أن بعض النصارى كانوا يحتفلون بالسبت مع اليهود في المعبد . ومعنى تقديس السبت عند متقدمي النصارى أنه لا ينبغي لأحد أن يمارس أياً من الشئون الدنيوية في هذا اليوم، بل ينبغي عليه أن يشغل نفسه تماماً في الأعمال الروحية والدينية ، بمعنى أن يحضروا إلى الكنيسة ويصغوا سمعهم لما يقرأ عليهم من الكتاب المقدس . وأن يعهدوا أكل وما تنظمه الكنيسة من شعائر واحتفالات .

وكما جاء في تعليق أوريجين (Origine) " إنك لو فكرت في الأشياء السماوية وأعطيت اهتمامك لآمالك المستقبلية ، إذا وضعت يوم القيامة الآتي نصب عينيك ولم تنظر للعالم المرئي لكن للعالم الذي هو وراء البصر وللمستقبل الخالد، فإن هذا كله يفسر معنى الاحتفال بالسبت بالنسبة للنصارى"[٢] .

إنه وحتى القرن الرابع الميلادي كان يوم السبت مقدساً لدى النصارى كيوم عطلة ، بل ربما أصبح أكثر أهمية عندهم، وبخاصة عند آباء الكنيسة الذين ظلوا يلتزمون بحرفية العهد القديم كاليهود ، جاء في كلام أوجستين : " حافظوا على تقديس يوم السبت هذه الوصية تعنينا أكثر مما تعنيهم (يعني اليهود) . إن اليهود يقدسون السبت بطريقة عبودية، وبأعمال شغبية وفي سكر .

كيف أنه يكون من الأفضل كثيراً لكن أيتها الزوجات اليهوديات أن تشتغلن بالمغزل وتنتجن بدلاً من أن تقضين اليوم في الرقص في شرفات منازلكن . دعونا لا نضيع الوقت ولو لدقيقة واحدة يا إخواني في طريقة احتفالهم بالسبت .

إن النصارى يحتفلون بهذا اليوم روحياً عن طريق الإحجام عن مباشرة العمل العبودي ، من مقارفة الخطيئة . كيف يمكننا أن نبرهن على ذلك ؟ اسألوا الرب " إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية " (يوحنا ٨ : ٣٤) . وهكذا وجب علينا تقديس السبت روحياً[٣] .

وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن نص يوحنا عند أوجستين يختلف لفظاً ومعنى عما هو موجود في إنجيل يوحنا الذي هو بين أيدينا . ولكي يتضح هذا الأمر ننقل هذا النص الإنجيلي على

---

(1) Apostolice Constitution 7.36 .

(2) (Origine, Sermon on Numbers 23 :4)

(3) Augusine, On the gospel of John 3.19

النحو التالي :- " فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم " هذا النص يدور حول تحديد طبيعة المسيح عليه السلام . من يكون ؟ وليس فيها أي إشارة إلى السبت وكما لاحظ الدكتور محمد أبو ليلة فإن من مظاهر تحريف كتب اليهود والنصارى تلك الاختلافات الظاهرة بين النصوص الأصلية وبين النصوص التي اقتبسها آباء الكنيسة في كتاباتهم . حتى أعلنت الكنيسة الرومانية أخيراً تكريس يوم الأحد أو يوم الشمس ، أي اعتباره يوماً مقدساً في الواحد والعشرين من شهر مارس عام ٣٢١ م وقد كتب قسطنطين إلى إلبديوس " كل القضاة وسكان المدن ، والعمال والحرفيين ينبغي أن يستريحوا في يوم الشمس المقدس ، ولكن سكان الريف يمكن أن يعملوا فيه إذا كان العمل ضرورياً فإنهم مرتبطون بمواسم الزراعة والحصاد التي يمكن أن يضر بها ترك العمل إنه لا ينبغي أن نترك الفرصة الممنوحة من الله تعالى لنا لأن موسم الزراعة والحصاد يتعاقبان بسرعة"[١].

أطعمة اليهود بين الحلال والحرام

ومن مواضع الاختلاف بين اليهودية والإسلام مسألة تحريم بعض الأطعمة على اليهود كما في قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون** ﴾ (الأنعام : ١٤٦). في هذه الآية يذكر الله تعالى أنه حرم على اليهود أنواعاً معينة من البهائم والطيور فلا يأكلون لحومها . فهم بالتالي لا يأكلون لحوم الإبل ولا النعامة ولا الأوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا يأكل اليهود حمار الوحش . ومعنى قوله تعالى : " **ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما** " أنه تعالى حرم عليهم الترب (الكروش) وشحم الكليتين ، كانت اليهود تدعي أن الله حرمها على إسرائيل ، قال ذلك السدي وأما قتادة فيقول في معناها أن الترب وجمعها تروب وهو الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء وكل شحم كان كذلك ليس في عظم[٢] . ومعنى "*ما حملت ظهورهما* " أي ما علق بالظهر من الشحم . قال ابن عباس وقال السدي الإلية مما حملت ظهورهما ، لأنها متصلة بالعصعص "الحوايا" التي مفردها حاوياء وحاوية وحوية ، هي ما تحويه البطن وهي المباعر أو المرابض ، وفيها الأمعاء فهذا محرم عليهم أما اللحم . المبنى على عظم المختلط به فهو حلال لهم وسبب هذا

---

(1) Code of Justianin 3,12,3 The odoism Code 2,801 Peters. Judaism, Chrstianity and Islam Princeteon New Jersay Preuceton University press 1990 Vol. 3 PP. 72FF
وانظر أيضاً د. محمد أبو ليلة القرآن والأناجيل (باللغة الإنجليزية) .

(٢) ابن كثير – مختصر تفسير ج٢ صـ ٦٢٨ ، وابن منظور – لسان العرب ط١ صـ ٢٣١ ، ٢٣٤ .

التضيق على اليهود هو بغيهم ومخالفتهم أوامر الله عز وجل فإن التوسعة في أنواع الحلال سمة من سمات اللطف والبر الإلهيين بالعباد والله لا يعاقب في الطعام إلا الشرهين الذين قالوا لموسى ﴿ ... لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (البقرة : ٦١) .

وقولهم لموسى ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ ، وقولهم لما قال الله تعالي : ﴿ قولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ فقالوا حنطة، أي طعاماً كما أشرنا إليه في موضوعه، وهذا بسبب عصيانهم، وأما زعمهم بأن هذه الأنواع من اللحوم كانت محرمة على الأنبياء كابراهيم وإسحاق وغيرهما[١] فقد كذبهم القرآن فيه ورد عليهم بقوله تعالي : ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ (آل عمران : ٩٣) .

يلزم القرآن بهذا اليهود، فهو يقول لهم في رد دعواهم أن كل الأطعمة كانت حلالا لبني إسرائيل، وأن تحريم بعضها لم يأت بوحي عن الله، وإنما جاء لعلة رآها واختص بها إسرائيل ، وهو يعقوب النبي عليه السلام . ولذلك وجب أن ننظر في كتبهم فيما يخص هذه النقطة ، حتى نثبت كذب دعواهم من كتبهم أيضاً .

تكلم الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين عن أنواع الحيوانات والطيور المباحة لليهود، وعن الأنواع المحرمة عليهم ، " وكلم الرب موسى وهارون قائلاً لهما كلما بني إسرائيل قائلين هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم التي على الأرض كل ما شق ظلفا وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فاياه تأكلون إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف الجمل . لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم والوبر . لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم والأرنب لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم . والخنزير لأنه يشق ظلفا ويقسمه ظلفين لكنه لا يجتر فهو نجس لكم من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا أنها نجسة لكم. وهذا تأكلونه من جميع ما في المياه كل ما له زعانف وحرشف في المياه في البحار وفي الأنهار فإياه تأكلون لكن كل ما ليس له زعانف وحرشف في البحار وفي الأنهار من كل دبيب في المياه ومن كل نفس حية في المياه فهو مكروه لكم ومكروها يكون لكم من لحمه لا تأكلوا وجثته تكرهون كل ما ليس له زعانف وحرشف في المياه فهو مكروه لكم وهذه تكرهونها من

---

(١) انظر ابن هشام – السيرة النبوية جـ٢ صـ ١٣٧ .

الطيور لا تؤكل إنها مكروهة النسر والأنوق والعقاب والحداة والباشق على أجناسه وكل غراب على أجناسه والنعامة والظليم والسأف والباز على أجناسه والبوم والغواص والكركي والبجع والقوق والرخم واللقلق والببغا على أجناسه والهدهد والخفاش وكل دبيب الطير الماشي على أربع فهو مكروه لكم إلا هذا تأكلونه من جميع دبيب الطير الماشي على أربع ما له كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض هذه منه تأكلون الجراد على أجناسه والدبا على أجناسه والحرجوان على أجناسه لكن سائر دبيب الطير الذي له أربع أرجل فهو مكروه لكم من هذه تتنجسون . كل من مس جثتها يكون نجسا إلى المساء " (١ ـ ٢٤) وقد أدخل اليهود ما حرمه إسرائيل أبوهم على نفسه ضمن محرمات التوراة معتقدين أن ذلك من فضل التقوى والبر بالأسلاف .

وفي قرينة الحديث عن المباح وغير المباح من الأطعمة في الديانة اليهودية نلفت النظر لنقطة مهمة وهي أن فكرة التكفير عن الخطيئة الأصلية والتي هي صلب العقيدة النصرانية لها أصل في التوراة الموضوعة فقد جاء في سفر اللاويين هذه الكلمات " ما لكما لم تأكلا ذبيحة الخطية في المكان المقدس لأنها قدس أقداس وقد أعطاكما إياها لتحملا إثم الجماعة تكفيراً عنهم أمام الرب ... " (١٠ : ١٧)

وأورد ابن إسحاق سؤال بعض أحبار اليهود للنبي ﷺ " يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فإن فعلت اتبعناك وصدقناك ، وآمنا بك . قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : " **عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني** " ، قالوا نعم ، قال : " **فاسألوا عما بدا لكم**"، قالوا : فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : " **أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ؛ ونطفة المرأة صفراء رقيقة ؛ فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه** " ! قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ فقال : " **أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان ؟**" فقالوا : اللهم نعم ؛ قال: " **فكذلك نومي ؛ تنام عيني وقلبي يقظان** " ؛ قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال : " **أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ؛ وأنه اشتكى شكوى ؛ فعافاه الله منها ؛ فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكرا لله ؛ فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ؟** " قالوا : اللهم نعم ؛ قالوا : فأخبرنا عن الروح ؟ قال : " **أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلمونه جبريل ، وهو الذي يأتيني ؟** " قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك ، إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك ؛ قال : فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ قل

من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن ا لله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند ا لله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب ا لله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ ، أي السحر ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر }[١] .

صوم يوم عاشوراء

هذا الموضوع ليس من الموضوعات القرآنية وإنما هو مما اختصت به السنة النبوية المطهرة .

أول ما صام المسلمون يوم عاشوراء ، صاموه مع رسول الله ﷺ في المدينة عن ابن عباس رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر الناس بصيامه) متفق عليه.

وذلك عندما وجد اليهود يصومون هذا اليوم فسألهم عن السبب في ذلك فقالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى عليه السلام ونحن نصومه شكراً لله ، وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء . فقال " **يكفر السنة الماضية** " رواه مسلم . ويتبين من حديث السيدة عائشة أن قريشاً كانت تصومه في الجاهلية وكان النبي ﷺ يصومه أيضاً ، فعنها أنها قالت : " **كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية** " . وكان رسول الله ﷺ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه ، فلما فرض رمضان قال " **من شاء صامه ومن شاء تركه** " .

واضح من هذا الحديث أنه ﷺ صام عاشوراء مع قريش بسبب غير مبين في الحديث السابق . وربما صامته قريش شكراً لله أو اتباعاً لسنة نبي سابق ، يروي ابن كثير في تفسير قوله تعالي: ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي** ﴾ (هود : ٤٤) . أي توقف الطوفان واستوت أي السفينة على جبل عال وخرج الناس منها سالمين ، قال كان خروج أصحاب نوح من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم وقد ورد

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ج٢ صـ ١٣٧ .

نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير وأنهم صاموا يومهم ذلك[١] وربما صام عرب الجاهلية ذلك اليوم تمجيداً لله على إنجاء البشرية من الهلاك من الطوفان . ولكن ابن دريد رد ذلك التوجيه بحجة أن اسم عاشوراء اسم إسلامي لم تعرفه العرب قبل الإسلام، وعارض ابن دحية هذا الرأي قائلاً بأن ابن الأعرابي حكى أنه سمع في كلامهم خابوراء قال الجواليقي لأنه لم يسمع كلمة على وزن فاعولاء إلا هذه الكلمة ، وضاروراء وساروراء وذالولاء . بأن صوم الأخيرين له لا يستلزم معرفته بهذا الاسم.وقال القرطبي عاشوراء معدول عن عاشرة للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل الليلة العاشرة ، وقيل بل هو من العشر الذي هو اسم العقد واليوم مضاف إليها يقال يوم عاشوراء . قال الزين بن المنير الأكثر على أن عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم . وقد صامه النبي ﷺ وأمر الناس بصيامه وذلك قبل أن يكلف الله المسلمين بصيام شهر رمضان[٢] .

روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال : " **إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا التاسع** " وفي رواية عن ابن عباس أيضاً أنه قال ﷺ " **في صوم يوم عاشوراء لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع** " ، و ربما كراهية ، منه ﷺ للتشبه باليهود قال " **صوموا التاسع والعاشر ولا تشبهوا باليهود** " ، عن ابن عباس قال قدم النبي ﷺ (أي إلى المدينة) فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال ما هذا ؟ (وكأنه صلى الله عليه وسلم استغرب الاتفاق فيه) قالوا : يوم صالح نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى فقال : " **أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه** "[٣] .

ولا داعي لأن نفصل أكثر من هذا في موضوع صيام يوم عاشوراء ، المهم أن نعرف أن النبي ﷺ صامه في مكة وأنه لما دخل المدينة وجد اليهود يصومونه كذلك فعرف بالوحي أو الاجتهاد أن صيامه ولابد من أعمال الخير والبر والشكر والثناء والاقتداء بالأنبياء السابقين فصامه ﷺ وأمر الناس بصيامه .

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ج٢ صـ ٢٢١ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الصوم . باب صيام يوم عاشوراء ، صحيح مسلم – كتاب الصوم باب صوم عاشوراء ، الشوكاني نيل الأوطار ٤ / ٢٤٢ – ٢٤٥ ، تفسير الطبري – ج٢ صـ ٧٦ ، ومسند الإمام أحمد ج١ صـ٣٤١ ، ولسان العرب ٤ / ٥٦٩ ، الإمام الأكبر د. محمد السيد طنطاوي ـ بنو إسرائيل في القرآن ج١ صـ ٨٣ ، مونتجمري وات محمد – في المدينة (السنورد – كلريندون برس ١٩٧٧) صـ ١٩٩ M.W.Walt, muhammad at medina P.199

(٣) الشوكاني – نيل الأوطار ج٤ صـ ٢٤٠ – ٢٤٥ .

قيل كان خروج أصحاب نوح من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير جاء فيه " وأنهم صاموا يومهم ذلك "[١] .

وربما صام عرب الجاهلية ذلك اليوم تمجيداً لله على إنجاء البشرية من الهلاك بالطوفان .

وينبغي أن نسلط الأضواء على صيام يوم عاشوراء كما تعرضه المصادر اليهودية ، صوم يوم عاشوراء هو صوم يوم الكفارة The Day of Atonement ويصوم اليهود هذا اليوم إحياء لذكرى نزول موسى عليه السلام من جبل سيناء بألواح ثانوية "بلوحت شنبوت" ، وبشرهم بغفران ذنبهم العظيم وسار ذلك اليوم من ثم يوم توبة وعبادة محضة إلى الأبد. ولذلك يقلع اليهود فيه بالذات عن اللذات الجسمانية ويتوقفون عن العمل، ويكتفون في هذا اليوم بالإعترافات بالذنوب والندم عليها والرجوع عنها[٢] يقول موسى ابن ميمون عن احتفال اليهود برأس السنة العبرية : (رأس السنة يوم واحد إذ هو يوم توبة وتنبيه الناس من غفلتهم ولذلك ضرب فيه الصور ... وكأنه توطئة وافتتاح ليوم الصوم)[٣] ويوم الكفارة هذا هو اليوم الوحيد من بين الأيام الذي نصت على وجوب صومه التوراة وهناك أنواع أخرى من صيام اليهود ورد ذكرها في غير التوراة وهي ترتبط كلها بتاريخ اليهود وبالحوادث المحزنة في حياتهم من هذا الصوم باختصار ما يقوم به الجماعة، ومنها ما هو من عمل الشخص منفرداً، وأنواع صيامهم هي على النحو التالي باختصار شديد :

١- صوم اليوم السابع عشر من شهر تموز وهو لإحياء ذكرى الشروخ التي أحدثها بختنصر وتيتوس في حيطان بيت المقدس .

٢- في صوم اليوم التاسع من شهر آب وذلك تحسراً على تدمير المعبد الأول وتدمير المعبد الثاني .

٣- صوم اليوم الثالث من شهر تشرين وهو في إحياء اغتيال ذكرى جيداليا بن أحيكام وحفيد شاقا وكاتب الملك جوسيا ؛ وهو حاكم منطقة جوديا ، عينه عليها بختنصر عام ٥٨٦ .

٤- صوم التبت وهو الشهر العاشر من الشهور الدينية عند اليهود وعدته تسعة وعشرين يوماً تبدأ إما من أواخر شهر ديسمبر أو أوائل شهر يناير . وتقع الأيام الأخيرة من في هذا الشهر حيث يوقد اليهود الشموع كرمز للنور حيث يشار بهذه الكلمة Chanucah إلى عيد النور وهو عيد قديم عندهم يحتفلون به ابتداء من اليوم الخامس والعشرين من

---

(١) نفس المصدر .

(٢) دلالة الحائرين صـ ٦٥٠ .

(٣) نفس المصدر صـ ٦٥٢ .

شهر كسلف (وهو الشهر العبري الثالث) ولمدة ثمانية أيام متصلة وهذا الشهر هو الشهر الثامن من التقويم العبري ويقع في شهري نوفمبر وديسمبر وينعقد صيامه بإحياء ذكرى إحباط وهزيمة اليهود على يد Haman ويصوم اليهود فيه خمسة أيام .

٥- هناك أنواع أخرى من الصيام اليهودي . ولليهود أيام يحرمون فيها الصيام كيوم السبت مثلا وقد استفاضت الرسالة التلمودية تانيت The Talmudical Tractate Taanit في ذكر معنى الصوم وأوقاته وأنواعه وما يجوز وما لا يجوز فيه(١) . ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن اليهود كانوا يعرفون عاشوراء بلفظه هذا قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وأن هناك اختلافاً يسيراً بين سبب صيامهم لهذا اليوم على ما ذكروه للمسلمين بالمدينة، وبين ما هو موجود بالفعل في المصادر اليهودية المتاحة لنا ولكن السبب في صيامه يبقى قاسماً مشتركاً بين اليهود والمسلمين وهو وصلة من صلات السنن القديمة سواء ارتبط بموسى أو بنوح عليهما الصلاة والسلام .

تحويل القبلة وموقف اليهود منه

إن تحويل القبلة من بيت المقدس بفلسطين إلى بيت الله الحرام بمكة يمثل حدثاً تاريخياً مهماً في سير الدعوة الإسلامية وفي بناء الأمة الإسلامية وتحديد هويتها ووجهتها ، هذا الحدث العظيم كان مثار خلاف بين اليهود والمسلمين من جانب وبين المؤمنين والمنافقين من جانب آخر ، يقول الله تعالي : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ (البقرة : ١٤٢) .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن اعتراض اليهود على تحويل القبلة واستغلال هذه الحادثة العظمى في التشويش على رسول الله ﷺ والطعن في دينه ، وذلك لما لاحظوه من انتشار الإسلام وازدياد قوة المسلمين وتنامي عددهم ، وظهور معالم دولتهم وتأسيس دستورهم ، وكذلك جاءت الآية التالية لتتحدث عن المسلمين كأمة وعن مكانتهم في التاريخ ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ (البقرة : ١٤٣).

(1) Graetz , History of the Jews , vol. 11 , 1 P.8 , Vallentine , Jewish Encyclopaedia , P. 221 .

وما كان اليهود ولا يزالون ليحبوا أن يكون للمسلمين والعرب دولة وأمة ودستور ، ومن بديع ما في هذه الآية الكريمة أن الله تعالي يعلن أن المسلمين هم شهود على الأمم، وكما أن الشاهد العدل لا يمكن أن يرضى أهل الباطل والأهواء، فإن اليهود لا يرضيهم المسلمين بحال .

لم يكن هذا الأمر يعني اليهود في شيء لو أنهم لم يكنوا تلك العداوة والبغضاء للرسول ﷺ وللمسلمين ، فالصلاة والقبلة لا تعني غير المسلمين ، ولم يلزم النبي ﷺ اليهود في ظل الحكم النبوي للمدينة أن يتحولوا عن دينهم أو عن قبلتهم أو عما يعتبرونه وحياً منزلاً ونصوصاً مقدسة ، ولذلك أردف الله تعالي بالحديث عن أثر تحويل القبلة في نفوس ضعاف الإيمان من الفريقين .

﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

لقد هدى الله تعالي نبيه محمداً ﷺ إلى قبلة أبيه إبراهيم التي كان يتمناها في قلبه ويرغب في التوجه إليها بفؤاده ، يقول تعالي : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (البقرة : ١٤٤) هذا الأمر الإلهي موجه إلى رسول ﷺ وهو موجه أيضاً للمصلين من المسلمين جميعاً.

إن أهل الكتاب وبخاصة اليهود أهل الجدل والعناد والدعاية والفساد، ليعلمون أن صرف القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، هو حق جاء به وحي من عند الله ، وأن محمدا لم يكن ليغير القبلة بهواه ولكنهم قوم معاندون ومكايدون . يقول الله تعالي : ﴿ وإن الذين أوتو الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن أتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ (البقرة : ١٤٤ ـ ١٤٥) .

أي أن اليهود الذين شنعوا عليك وعلى أمتك يا محمد في استقبال الكعبة في الصلاة بدلاً من التوجه إلى بيت المقدس، يعلمون يقيناً أن الله سيوجهك إليها ولكنهم يخفون ذلك ويتكاتمونه فيما بينهم حسداً وكفراً وعناداً ، ولهذا توعدهم الله تعالي بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ أي بخلاف ما لديهم من علم . ويبين الله تعالي بوضوح إصرار اليهود على موقفهم الجامد وأنهم لن يتبعوا محمداً حتى ولو جاءهم بالآيات الكثيرة وذلك لأنهم يتبعون أهواءهم

والرسول ﷺ لن يغير موقفه فيتبع قبلتهم لأنه واقف على حق ، ومؤيد بوحي وعلم من الله تعالي ، وأنه مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته فهو لا يرفض قبلة اليهود لكونهم يهوداً ، بل لأمر الله له وليس لأنه كان حائراً متردداً كما كان يشيعه اليهود[١] .

يقول ابن إسحاق في السيرة أنه لما صرفت القبلة من الشام إلى الكعبة ، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبي رافع ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع أبي الحقيق ، فقالوا يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالي فيهم ﴿ سيقول السفهاء من الناس ... ﴾ الآية)[٢] .

اليهود دائماً أهل غدر وختل ودعاية سيئة ضد كل من لا يوافق هواهم ، ويحقق متمناهم، هكذا كانوا مع الأنبياء ومع نبينا ﷺ ومع المسلمين على مدار التاريخ وإلى اليوم وإلى قيام الساعة يقابلون الإحسان بالإساءة ووفاء العهد بالغدر والسلم بالمخادعة والمكر وتأليب القوى العظمى ضد المسلمين ، وتشويه صورة المسلمين في نظر الشعوب الأخرى والتأليب عليهم . مع أن المسلمين أكرموهم وحافظوا عليهم ولم يكرهوهم بسبب دينهم بل بسبب عنصريتهم وبغيهم .

القصاص :

خلق الله تعالي الإنسان وكرمه على سائر المخلوقات بالعقل والدين والتكليف ، وبتحمل المسئولية وبالقدرة على انتهاج أحد الطريقين إما الهدى وإما الضلال .

وهب الله الإنسان الحياة ليعيش على هذا الكوكب إلى الأجل المسمى له ، وحرم تعالى الاعتداء على هذه الحياة بأي شكل من الأشكال ، سواء من قبل الإنسان نفسه أو من قبل غيره،

---

(١) ابن كثير مختصر تفسير ج١ صـ ١٣٨ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ـ السيرة النبوية ، جـ٢ ، صـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ، والبخاري (باب التوجه إلى القبلة) ، ابن كثير مختصر ـ تفسير ، جـ١ ، صـ ١٣٤ وما بعدها ، الزمخشري ـ الكشاف ، جـ١ ، صـ ٣٧٠ ، د. سيد طنطاوي ـ بنو إسرائيل ، جـ١ ، صـ ٢٢٨ وما بعدها ، وات ـ محمد في المدينة ، صـ ٢٩٨.

فحرم عز وجل الانتحار وجعل جزاءه النار الأبدية يقول تعالي : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

نزلت الآية في وجوب الإنفاق والتحذير من البخل وفي وجوب صرف الأموال في الإعداد لقتال الأعداء وبذلها فيما يقوى وضع المسلمين . والآية كذلك تخبر أن التفريط في وقاية النفس من الرذائل المذكورة يعد هلاكاً ودماراً لمن لزمه واعتاده ، سواء كان فرداً أو جماعة أو أمة فإن ترك الجهاد في سبيل الله لحياطة الملة والأمة يؤدي إلى التهلكة لا محالة والجهاد مقاومة شرعية للشر ، ودحر للفتنة ، وكبت للأعداء . وإذا كان الانتحار محرماً ومحرماً في الشريعة الإسلامية باعتباره اعتداء على حق الحياة التي خلقها الله تعالي وأتمن عليها صاحبها ، فإن الاعتداء على الروح وعلى النفس وعلى العقل يعد جريمة يعاقب عليها الله تعالي أيضاً . والإسلام إنما جاء ليحافظ على المقاصد الخمسة : النفس والدين والمال والعقل والنسب .

حرم الشرع الاعتداء على حياة الناس وقد ورد النهي عنه كثيراً في القرآن الكريم ، فلقد حرم الله تعالي ورسوله ﷺ الاعتداء بكل أشكاله وصنوفه ، بل لقد حرم على الإنسان كل ما يؤدي إلى انتهاك حرمة الإنسان أو يساعد على الاعتداء عليه أو يمهد للاعتداء على النفس بالقتل أو الجروح أو حتى مجرد الترويع .

وذكر الله تعالي في القرآن أن جزاء المعتدى أن يقتص منه على قدر جريمته ، كما بين تعالي أن هذا الحكم وارد أيضاً في التوراة يقول تعالي : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ (المائدة : ٤٥) .

يقول ابن كثير في تفسير الآية وهذا أيضاً مما وُبِّخت به اليهود وقُرِّعوا عليه ، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية . كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : " **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** " لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً ، وقال هنا : " **فأولئك هم الظالمون** " (لأنهم لم يعدلوا في الحكم بل جاروا وحافوا) فلم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا بعضهم على

بعض[١] دون مراعاة لأي اعتبارات أخرى لأن العدل ميزان ومسلك للحياة كلها وسلك متين يجمع نظام الأمة ويقوى شأنها ويذكر ابن كثير أيضا أن كثيراً من الأصوليين والفقهاء بهذه الآية على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، إذا حكى مقرراً ولم ينسخ وهو المشهور عند الجمهور أيضاً[٢] والقصاص يكون في النفس وفي الجروح ، ويقتص للمرأة من الرجل وللرجل من المرأة ، والعقوبات الجنائية التي عرفتها اليهودية من قبل لا تزال محل التطبيق في الشريعة الإسلامية يقول تعالى في تقرير هذه العقوبة ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون** ﴾ (المائدة : ٣٢) .

والسبب في هذا التشريع إبتداء هو قتل ابن آدم قابيل آخاه هابيل ظلماً وعدواناً ، وبقتله اياه قتل خلقاً كثيراً كان يمكن أن ينحدروا منه ، وقع هذا القتل في وقت لم يكن يعيش فيه على هذا الكوكب إلا هو وأخوه ، وربما أبوهما آدم عليه السلام وأمهما حواء عليها السلام ، ولذلك عظم البلاء بهذه الجريمة الأولى في تاريخ البشرية والتي ارتكبها ابن نبي . ومن أجل هذا الفعل البشع فرض الله تعالي على بني إسرائيل : (وبالطبع على غيرهم من السابقين عليهم) أن من قتل نفساً بغير نفس أي بغير سبب من قصاص ، أو إفساد في الأرض يستحق هذا النوع من العقوبة ومن قتل نفساً بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً ، وتفسير ذلك أيضاً أنه لا فرق عند القاتل بين نفس ونفس أو لأنه إذا استحل الإنسان قتل نفس هان عليه قتل الآخرين.

والقتل قد يكون مباشراً وغير مباشر وقد يكون بالترويع أو التخويف أو إهدار الكرامة وغير ذلك وكل هذا محرم في الشريعة الإسلامية . ومعنى قوله تعالى : " **ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعاً** " أي من أحيا نفساً واحدة فكأنه حافظ على حياة جميع الناس وأمنهم وصان عليهم أعراضهم ودماءهم وأموالهم .

قال سعيد بن جبير " **من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً** " وهو الأظهر من كلام العلماء والمفسرين في معنى الآية . ومن معاني " أحياها " أيضاً أي أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة أو خطر يكون لمن فعل ذلك أجر عظيم يتناسب مع إنقاذ نفس من الهلاك . قال الحسن وقتادة في قوله تعالي " *أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً* " أنه تعظيم لعقوبة القتل ، قال قتادة : " عظيم

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٥٢٠ .

(٢) ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٥٢٠ .

والله وزرها ، وعظيم والله أجرها " (يعني عظيم وزر القتل ، وعظيم أجر المحافظة على الحياة).

وقال ابن المبارك عن سليمان الربعي أنه سأل الحسن البصري هل هذه لنا كما كانت لبني إسرائيل ؟ فقال : إي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل ، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم من دمائنا[1].

ومما تتفق فيه التشريعات اليهودية مع الشريعة الإسلامية، الرجم ، قال تعالى : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ (المائدة : ٤٣) نزلت هذه الآية في منافقي اليهود أعداء الإسلام وأهله ، المحرفين لكلام الله ، المتجسسين على رسول الله ﷺ .

فقد جاءوا إلى الرسول ﷺ : فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرآة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ " ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ " فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام كذبتم ، إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا آية الرجم .

فقالوا : صدقت يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرآة يقيها الحجارة . أخرجه مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ، واللفظ للبخاري.

وعن مسلم أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ لما سألهم ، " ما تجدون في التوراة على من زني ؟ " (أي من عقوبة) . قالوا : نسود وجوههما ونحممها ونحملهما (أي على حمار) ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ... "[2] الحديث .

يتضح من حديث البخاري ومسلم أن اليهود قد أبطلوا حد الرجم واتفقوا على نوع مخفف من العقوبة جرى مجرى العادة بينهم ، وربما اختلف نوع العقوبة من جماعة لجماعة ومن بيئة لأخرى وربما يؤكد هذا المعنى حديث البراء بن عازب ، إذ يروي أنه مر على رسول الله ﷺ يهودي محمم مجلود ، فدعاهم فقال : " أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ " فقالوا نعم ، فدعى رجلاً من علمائهم ، فقال : " أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى . أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ " فقال : لا والله ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في

---

(١) ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٥٠٩ وما بعده .

(٢) ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ١ ، صـ ٥١٨ .

كتابنا : الرجم ولكنه (أي الزنى) كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ : " اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه " ، قال : فأمر به فرجم ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ إلى قوله : ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾ أي يقولون : ائتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد ، فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قاله تعالى في اليهود[1] .

وفي هذه القرينة نشير إلى أن المسيح عليه السلام قد أخذ على اليهود إهمالهم للنص وإعمالهم للتقاليد ، يقول على ما في إنجيل مرقس ٧ : ٩ ــ ١٣ ثم قال لهم حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم لأن موسى قال أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا وأما أنتم فتقولون إن قال إنسان لأبيه أو أمه قربان أي هدية هو الذي تنتفع به مني فلا تدعونه في ما بعد يفعل شيئاً لأبيه أو أمه مبطلين كلام الله بتقليدكم الذي سلمتموه وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون " فاعتماد اليهود على التقاليد والتراث على حساب النصوص الدينة كان قديماً .

ولننظر الآن ماذا تقول كتب اليهود عن القصاص والرجم .

جاء في سفر الخروج ٢١ : ١ ، ١٢ : ٢٧ " وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم ... من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً ولكن الذي لم يتعمد بل أوقع الله في يده فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه ؟ وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحي تأخذه للموت . ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً ، ومن سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً ، ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً .

وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط في الفراش فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً إلا أنه يعوض عطلته وينفق على شفائه ... وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل، وكياً بكي وجرحاً بجرح ، ورَضًا برضّ ... "

" لا تشفق عينك . نفس بنفس . عين بعين . سن بسن . يد بيد . رجل برجل." تثنية ١٩: ٢١

---

(١) نفس المصدر والموضع .

وفي سفر اللاويين " وإذا أمات أحد إنساناً فإنه يقتل ، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفساً بنفس. وإذا أحدث إنسان في قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل بـه . كسر بكسر ، وعين بعين وسن بسن . كما أحدث عيباً في الإنسان كذلك يحدث فيه ... " (٢٤ : ١٧ ـ ٢٠) ومـن المفيد أن نذكر أيضاً أن التشريعات اليهودية تعاقب المتعدي على ذات الله ، وبالقتل رجماً بالحجارة ، ترجمه كل الجماعة رجماً وهذا الحكم واحد يشمل " الغريب والوطني "[١] .

وواضح من نفس السفر أن عقوبة رجم المجدف على اسم الله قد طبقت فقط أيـام موسى عليه السلام فكلم موسى بنى إسرائيل أن يخرجوا الذي سب إلى خارج المحلة ويرجموه بالحجارة ففعل بنو إسرائيل كما أمر الرب موسى " (اللاويين ٢٤ : ٢٣ والعدد ١٥ : ٢٥ والملوك الأول ٢١ : ٣١)

أما عن عقوبة رجم الزاني والزانية فقد جاء في سفر التثنية " ... ولكن إذا كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عذرة للفتـاة (أي فقدت البنت بكارتها) يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها فتنتزع الشر من وسطك . إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة ، زوجة بعل ، يقتل الإثنان ، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فتنتزع الشر من إسرائيل " ٢٢ : ٢٠ - ٢٣ هذا إذا كانت الجريمة قد تمت بالاتفاق أما إذا وقعت عن طريق الاغتصاب فإن الرجل فقط هو الذي يموت رجما بالحجارة ، وأما البنت فلا ذنب لها إذا كانت قد صرخت واستغاثت فلم يغثها أحد ويكون حكمها في هذه الحالة كمن قتلت غدراً . (تثنية ٢٢ : ٢٦ ـ ٢٧) ، ومن الواضح أن اليهود لم يطبقوا عقوبة الرجم على الزناة طوال تاريخهم ، هذا على كثرة شيوع قصص الزنا في الكتاب المقدس ، وأن النصارى لم يطبقوها كذلك ولا مرة واحدة ، ولم يرد أن المسيح عليه السلام طبقها بل إن الإنجليين أسندوا إليه ما يستفاد منه أنـه ألغى هذا الحكم ، وذلك عندما جاء له بعض أعيان اليهود بزانية وطالبوه أن يقيم عليها الحد فقال (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) فلم يستطع أحد أن يرميها بحجر . هذا مع أنه يمكن أن يقال إذا صحت نسبة الحادثة إلى المسيح عليه السلام ، بأنه لم يأمر برجم الزانية لأن الذين أمسكوا بها كانوا أنفسهم زناة متسترين أرادوا أن يفضحوا المرأة وأن يحرجوا المسيح عليه السلام في نفس الوقت مع السلطة الرومانية الحاكمة ، وإلا فالمسيح لا يلغي حكماً لله تعالى لا يقوم مجتمع بدونه ، وبخاصة إذا عرفنا أن المسيح تشدد في تحريم الزنا وفي عقوبة الزاني ، حيث يقول : " قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنـه خير لك أن يهلك أحد

---

(١) سفر اللاويين ٢٤ : ١٦ ـ ١٧ ، ٢٣ .

أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم " (متى : ٥ : ٢٧ ـ ٣٠) . ونلاحظ أن المسيح هنا يجعل حكمه بديلاً عن حكم التوراة فهو يقول : " قد سمعتم أنه قيل للقدماء " وأما أنا فأقول لكم " وقد تكررت هذه العبارة ست مرات في نفس الإصحاح ، علماً بأن هذه العبارة مناقضة لقول المسيح في نفس الإصحاح (١٧) لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ... " فهو هنا يقرر أنه ما جاء لينقض التشريع السابق وإنما ليكمله ، وهو في المواضع التالية ، والتي أشرنا إليها ، يثبت أن له تشريعاً جديداً يخالف تشريع موسى عليه السلام والأنبياء هذا إذا كان النص صحيحاً ومن أقوال المسيح وكان فهم الحوارين له صحيحاً أيضاً .

نقول أن المسيح لم يلغ هذه القوانين الإلهية الثابتة وهي القصاص وسائر الحدود وإنما أراد فقط أن يؤكد على الجانب التربوي من مشروعيتها وعلى الغاية الخلقية والروحية منها ، وهو ما لم يفهمه تلاميذه ، كما يبدو لنا على الأقل ، حيث أنهم جعلوا كلامه عليه السلام أشبه بالناسخ لما قبله من شرائع ، مع غفلتهم عن تقريره في البداية أنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله ، وكدليل على عدم إقامة اليهود ، وكذلك النصارى لحد الزنا قول الرسول ﷺ " اللهم أني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه " كما مر في الحديث الذي سقناه بتمامه . وقد استفدنا من كلام المسيح عليه السلام أن اليهود يحتكمون إلى التقاليد اليهودية والتلمودية أكثر من احتكامهم إلى التوراة وكتب الأنبياء ، لذلك فإنهم لم يطبقوا حد الزنا قط ، والتي جاءت بها التوراة وربما كان تعطيل هذا الحد سبباً رئيساً في شيوع الزنا حتى بين المحارم ، والاستخفاف بالحرمات في المجتمعات المعطلة لهذا الحد بحيث أصبحت الدعارة فيها رائجة ، والزنا ' المقبول عرفياً شائعاً بينهم وزاد بالتالي عدد اللقطاء ، والنساء اللائى بلا مأوى وكنتيجة لهذا الانحلال أيضاً زيادة معدلات الجريمة .

وقد ذكر الدكتور محمد أبو ليلة في بحثه الذي أعده في الرد على مؤتمر بكين ، أن الزنا والدعارة محرمان في اليهودية والنصرانية ، وبالإضافة إلى ما سبق أن سقناه من أدلة وشواهد على قبح معصية الزنا والفواحش بصفة عامة أقتبس هذا النص من دلالة الحائرين التي سبقت الإشارة إليه بقول ابن ميمون " من المعلوم أن الأصدقاء أمر يضطر الإنسان إليه فى جميع عمره ، قد بين ذلك أرسطو فى تاسعة الأخلاق . أما فى حال صحته ، وسعادته فيستلذ بأنسهم له ، وفى حال ضيقته يلجأ إليهم ، وعند شيخوخته وضعف جسمه يستعين بهم ، وهذا المعنى موجود فى الأولاد أكثر وأعظم ، وكذلك فى الأقارب وإنما يتم الإخاء والتحابب والتعاون

بالأقارب فى الأنساب حتى أن القبيلة الواحدة إذا جمعها جد واحد ولو بعد ، حصل بينهم من أجل ذلك محبة ومعونة بعضهم لبعض وشفق بعضهم على بعض الذى هو أكبر مقاصد الشريعة ، فمن أجل هذا المعنى حرمت العهارة لما فى ذلك من إفساد الأنساب وكون المولود منها أجنبياً للناس كلهم لا يعرف له عصبة ، ولا يعرفه أحد من عصبه وهذه أردى حالة فى حقه ، وفى حق والده . ومعنى آخر عظيم فى تحريم العهارة وهو منع كثرة الشره فى النكاح ومداومته . لأن باختلاف أشخاص العاهرات يزداد الشره إذ ليس تحرك الإنسان لشخص واحد قد ألفه دائماً كتحركه لأشخاص مستجدة مختلفى الصور والحالات ، وفى تحريم العهارة فائدة عظيمة جداً ، وهو منع الشرور لأن لو كانت العهارة مباحة لقصد المرأة الواحدة عدة رجال فى وقت واحد بحسب الاتفاق ، فلا بد من التنازع ، وفى أكثر الأمر يقتل بعضهم بعضاً أو يقتلونهما كالأمر المتعارف دائماً : وإلى بيت الزانية تبادروا .

فلمنع هذه الشرور العظيمة وجلب المنفعة العامة وهى معرفة الأنساب حرمت عهارة المرأة والرجل ولم يوجد وجه حل للنكاح إلا بإفراد مرأة وزيجها بالإشهار ، لأنه لو قنع فى ذلك بالإفراد فقط ، لكان أكثر الناس يجيب العاهرة لداره مدة ما متفقاً عليها بينهما ، ويقول هى زوجة فلذلك فرض عقد وعمل ما يكون تخصيصها له به وهو الخطبة ، وأن يشهر ذلك وهو عقد النكاح[١] (٥٣٠ ـ ٦٠٣هـ / ١١٣٥ ـ ١٢٠٥م) .

ونختم هذا الموضوع بالتنبيه على مسألة مهمة للغاية وهي أن الزنا إنما شرع لحماية الأعراض وللحفاظ على الأنساب ، وعلى سلامة الأفراد والمجتمعات من الأمراض والفساد ، وحد القتل إنما شرع للحفاظ على الحياة وسلامة وأمن المجتمع ، لا لمجرد الردع والقسوة كما يتخيله بعض المستخفين بالمحرمات . وما شرع حد السرقة كذلك إلا للحفاظ على المال الخاص والعام ، وإنه إن لم يعاقب الجاني لم يرفع الظلم وتمنع الأذية وكذلك إن لم يرتدع الجانى وكل من يفكر فى الاعتداء على حقوق الآخرين وسلامة المجتمع من سلامة الفرد لن يستقر المجتمع ولن يسعد الناس . وما أسخف رأي الذين يزعمون أن تطبيق الحدود بالطريقة التي جاء بها الشرع فيه قسوة وعنف وعدم رحمة بالناس ، إن مثل هؤلاء راعوا المجرم ولم يراعوا الضحية بل الضحايا الكثيرة التي يعتدي عليها ذئاب البشر إن هؤلاء المعارضين للحدود يجهلون أو يتجاهلون أن ترك العقوبات هو عين القسوة وفساد نظام المدينة واختلال الأمن الذي هو من أكبر نعم الله على الإنسان . وأن الرحمة كل الرحمة هي تطبيق ما جاء به الشرع ولذلك يقول الله تعالي : " **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** "

---

(١) دلالة الحائرين ـ تحقيق : حسين أتاى ـ القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ ج٣ ، صـ ٦٩٢ - ٦٩٣ .

(البقرة: ١٧٩) . ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ (النور : ٢) .

ومعنى لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله أي لا تشفقوا عليهم في تطبيق شرع الله عليهم فهذه رحمة من الله لا قسوة ولهذا المعنى تكرر قوله تعالي : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ الآيتان (١٠ و ٢٠) بعد الحديث عن الحدود وما يتصل بها. وفي العصر الحديث قد أبطل كثير من الأمم توقيع عقوبات الرجم والجلد وقطع اليد على السارق والقتل على القاتل مما ساعد على شيوع الجريمة والفوضى في كثير من المجتمعات المعاصرة ، وجعل المجرم فى منعة من طائلة القانون ، وهناك مناطق فى العالم لا يمكن أن يأمن فيها على نفسه أو أهل بيته وربما كانت هذه المناطق فى بلاد تملك أقوى الأسلحة والاستخبار وسرعة الانتشار .

رؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه :

إن إبراهيم عليه السلام شخصية تاريخية عظيمة ونبي من أنبياء الله الكبار ، ولقد تحدث القرآن عن قصته ﷺ باستفاضة في عدة سور من القرآن الكريم في تسع وستين موضعاً في خمس وعشرين سورة . تبدأ بسورة البقرة وتنتهي بسورة الأعلى .

وردت قصة إبراهيم عليه السلام شبه كاملة في القرآن الكريم وبخاصة في دعوته إلى الله في سن مبكرة . كما نفهم من قوله تعالى : ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ (الأنبياء : ٥٩ ـ ٦٠) . ومعنى فتى أي في سن صغيرة . ويقول تعالي : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ... ﴾ (الأنبياء : ٥١ ـ ٥٢) .

وأورد القرآن كذلك قصته مع أبيه الذي كان يمتهن صناعة التماثيل ويبيعها للعبادة وموقف أبيه الجامد منه وتهديده له بالرجم وهجرة إبراهيم عليه السلام بعيداً عن أبيه واعتزاله للآلهة المعبودة من دون الله . (مريم : ٤١ – ٥٠) . وكذلك قصته مع قومه الكفرة من الصابئة وعبدة الأوثان ، وما فعله إبراهيم بآلهتهم العاجزة ورد فعل قومه العنيف تجاه هذه الحادثة . (الأنبياء ٥١ ـ ٧٧) كما قص علينا القرآن رؤيا إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده وهمه بتنفيذ الأمر الإلهي كما سنذكره . وحكى الله تبارك وتعالي ابتلاءه لإبراهيم عليه السلام بغرض تصفيته له لتنصيبه إماماً رسولاً ، وأخذ العهد معه بذلك . وقصة إبراهيم عليه السلام في مكة ودعوته لهذا المكان بالعمارة والرزق ولأهله بالبركة ورفعه هو وإسماعيل عليه السلام

القواعد من البيت ، تقرباً لله عز وجل وتمكيناً لدينه في الأرض ودعوة الناس إلى عبادته سبحانه وتعالي . ونقل إلينا القرآن كذلك دعوة إبراهيم عليه السلام أن يبعث الله خاتم النبيين بالوحي والعلم والحكمة والتزكية الظاهرة والباطنة وتربية إبراهيم أولاده على الدين المتين . (البقرة : ١٢٤ ـ ١٣٣) و (إبراهيم : ٣٥) . وساق القرآن كذلك دعوة إبراهيم عليه السلام لحاكم زمانه والمحاورة التي دارت بينه وبين هذا الحاكم الجبار ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ... ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

وكذلك حواره مع عبدة الأصنام كما أشرنا إليه آنفاً . وقوله لهم عندما حاجوه ﴿ أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ (الأنعام ٨٠ – ٨١) . ألزم إبراهيم قومه الحجة عن طريقين طريق الوحي وطريق العقل ، والحجتان تنبثقان من لسان الحق على لسان نبي الله ﷺ أما عن الاحتجاج العقلي المتعزز بالوحي أيضاً فيتبين من قوله تعالي : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض وما أنا من المشركين ﴾ (الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩) .

فإبراهيم عليه السلام لما كان قومه (الصابئة) يعتقدون في الشمس والقمر ويعبدون الكواكب احتج عليهم من جنس ما يؤلهون ، إذا أوقفهم على أن تلك الشمس العظيمة التي يتخذونها إلهاً معبوداً كائن ناقص لأنها تشرق وتغرب ولا تستقر على حال واحدة فهي في الصباح غيرها في المساء وهي في الضحى غيرها عند الأصيل . والقمر كذلك يبزغ بالليل ويرسل نوره ، ولكنه أيضاً خاضع لمؤثرات الطبيعة وأنه يزيد وينقص حجمه في رأي العين ويطلع ويأفل في أوقات مخصوصة وهو لا يشذ عن النظام الموضوع له وعن التأثير والتأثر بالعوامل والحوادث الطبيعية وبالتالي فلا يمكن أن يكون ذلك إلها يعبد بل هو وغيره من الكائنات مسخر بأمر الله لخدمة الإنسان . وهكذا تدرج إبراهيم في دعوة قومه في الحجة والإقناع حتى وصل بهم إلى ضرورة التسليم بوجود الله المدبر دائم الموجود ، المتصرف في

خلقه أبداً ، ومن المفيد أن نذكر هنا إلى أن إبراهيم عليه السلام قد بعث في قوم يعبدون الكواكب ويؤمنون بقوة تأثير الفلك ، ويعتقدون أن عبادة الكواكب تعمر الأرض وتخصب البلاد، وكان علماؤهم ونساكهم يعظمونهم لهذا ، ويعلمونهم أن الفلاحة التي بها قوام الوجود الإنساني إنما تجيء رؤيتهم على الاختيار بعبادة الشمس والكواكب وكانوا يخوفونهم بأنهم إذا عصوا هذا الأمر عمهم الفقر وشملهم القحط ونزلت بهم الأوبئة .

جاء في بعض كتبهم أن المشترى سخط على البراري والصحاري ولذلك انعدام فيها الماء والزرع والأشجار وسكنتها الغيلان . فكانوا لذلك يعظمون الفلاحة والفلاحين والأكارين جداً وذلك لانشغالهم بعمارة الأرض التي هي من إرادة الكواكب ، وهو رضاها . وكان كهنة الشرك يوجون إلى الناس أنه بعبادة الكواكب تنزل الأمطار وتثمر الأشجار ويعم الخير البلاد والعباد . وكان للصابئة أعياد ومناسبات دينية يلهون فيها عند الأصنام بكل أنواع المنكرات ظانين أنهم بهذا يجلبون الخير لأنفسهم[1] . لكل هذه فقد تحمل إبراهيم عليه السلام عناءً شديداً وعنتاً في هداية قومه ، ومن أجل تحمله هذا في الدعوة إلى الله على كل المستويات وبكل الطرق مجده الله تعالي وأثنى عليه كثيراً في القرآن الكريم فهو أبو المسلمين ، وهو أمة في نفسه وهو الأواه الحليم ، وهو الخليل وهو القانت ومن أجل هذا أيضاً رفع الله ذكر إبراهيم بين أهل الملل فكل أهل الأديان السماوية يدعى النسبة إليه . فيزعم اليهود أن إبراهيم أباهم وأنه هو الباني الأول لتاريخ وتراث الشعب اليهودي وقد فند القرآن الكريم دعواهم مع النصارى في قوله تعالى : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً أو نصرينا ولكن كان حنيفاً مسلماً** ﴾ (آل عمران : ٦٧) .

ويزعم اليهود أن لغتهم العبرية تعود كذلك إلى إبراهيم عليه السلام، والعبرية والعربية من أصل واحد ولكن هل تخلى إبراهيم عليه السلام عن اللغة السريانية وتكلم العبرية بعد أن خرج من قريته هور كشد من أقليم بابل وسار إلى حران وعبر نهر الفرات ؟ هذا الموضوع يحتاج إلى بعض التفصيل الذي ليس موضوعه هنا ونأتي الآن إلى نقطة خلافية بين المسلمين واليهود وهي حول من هو الذبيح هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟ لقد جاء في القرآن الكريم : (سورة الصافات : ٨٣ - ١١٣) : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أءفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين فأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما**

---

(١) دلالة الحائرين صـ٥٩/١ ، والمسعودي ـ مروج الذهب جـ ١ صـ ٤٤ ـ ٤٥ ، والتنبيه والأشراف صـ ٧٨ ـ ٧٩ .

تعملون قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء ا لله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ اتفق المسلمون على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام بغض النظر عن بعض الروايات الضعيفة التي أوردتها بعض كتب التفاسير وقصص الأنبياء من أن الذبيح هو إسحاق ، ومما يدل على أن الذبيح هو إسماعيل أن الله تحدث عنه كابن وحيد عند الأمر بالذبح " **فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي ...** " الآية ، وقد سبقت هذه البشارة بدعوة إبراهيم عليه السلام " **رب هب لي من الصالحين** " وهذا يدل على أنه لم يكن قد رزق بولد بعد ، وأن الولد الذي رزقه على شوق وحب كان هو الذي أمره الله بتقديمه فداء وهو إسماعيل عليه السلام . وأما ثانياً فإن الله تعالي يقول : " **فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** " يعنى أنه بشره بابن وبابن ابن ، من نفس الإبن وهذا هو إسحاق فكيف يعقل إذن أن يأمر الله بذبح هذا الابن[١] .

وسوف نرى أن التوراة تقرر أيضاً أن الذبيح كان إبن إبراهيم الوحيد وهي بهذا تتفق مع ما يعتقده المسلمون ، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ " **أنا ابن الذبيحين** " وهو أبوه عبد الله الذي عرض على الموت فنجاه الله منه وفداه ، وأبوه إسماعيل عليه السلام ابن السيدة هاجر الذي تعرض للذبح أيضاً ولكن الله فداه بذبح عظيم على ما أورد الله تعالي في سورة الصف .

وهنا ومن أجل توضيح الأمر ينبغى أن نقارن بين ما جاء به الإسلام وما سبقت بذكره كتب اليهود بشأن هذا الحدث جاء في سفر التكوين (٢٢ : ١ - ١٩) " وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له يا إبراهيم . فقال هأنذاه فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك . فبكر إبراهيم صباحاً وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشقق حطباً لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله . وفى اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ها هنا مع الحمار . وأما أنا والغلام

---

(١) انظر ابن كثير ـ مختصر تفسير ، جـ٣ ، صـ١٨٤-١٨٩ .

فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما . فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معاً . وكلم إسحاق إبراهيم أباه وقال يا أبى . فقال هأنذا يا بنى . فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة . فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا بنى . فذهبا كلاهما معاً .

فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم . فقال هأنذا . فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا . لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً فى الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه . فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرأه . حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى .

ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء . وقال بذاتى أقسمت يقول الرب . إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر ويرث نسلك باب أعدائه . ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . من أجل أنك سمعت لقولى . ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه . فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع وسكن إبراهيم فى بئر سبع " .

تتفق كتب اليهود المقدسة جميعاً، ويتفق شراحها على أن الذبيح هو إسحاق، مفسرين قول التوراة " خذ ابنك الوحيد " على أنها إشارة إلى إسحاق، لا إلى إسماعيل، فإسحاق كان ولد الحرة، وأما إسماعيل فكان ولد الأمة، ولذلك لم تعتبره التوراة، وهذه عنصرية بغيضة وتحريف جسيم من تحريفات التوراة التحريف اللفظي والتحريف المعنوي . وقد نقل بولس اليهودي المستخفي في النصرانية تلك النزعة صراحة إلى النصرانية يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية : " أقول الصدق فى المسيح . لا أكذب وضميرى شاهد لى بالروح القدس إن لى حزناً عظيماً ووجعاً فى قلبى لا ينقطع . فإنى كنت أود لو أكون أنا نفسى محروماً من المسيح لأجل أخوتى أنسبائى حسب الجسد الذين هم إسرائيليون ولهم التبنى والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد . ولكن الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد آمين . ولكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سقطت . لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون . ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد . بل بإسحاق يدعى لك نسل . أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً . لأن كلمة الموعد هى هذه . أنا آتى نحو هذا الوقت ويكون لسارة ابن . وليس ذلك فقط بل رفقة أيضاً وهى حبلى من واحد

وهو إسحاق أبونا . لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شرا لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو . قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير . كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو" . الإصحاح التاسع صـ ٣٥٦ حـ من ١ - ١٣ .

وهو يقول بوضوح : " قولوا لي أنتم الذين تريدون أن تكونوا تحت الناموس ألستم تسمعون الناموس - فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان . لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد . لأن الناموس ينشىء غضباً إذ حيث ليس ناموس ليس أيضاً تعد . لهذا هو من الإيمان كى يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط بل أيضاً لمن هو من إيمان إبراهيم الذى هو أب لجميعنا (٤ : ١٦ - ١٧) يناقض بولس كلامه هذا ويقول في رسالته نفسها لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط بل هو أيضاً لمن هو من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا ، كما هو مكتوب " أني قد جعلتك أب لأمم كثيرة " فهو هنا يجعله أباً للجميع بالإيمان ، وبالأمم كثيرة .

أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة . لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد وأما الذي من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحداهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر . لأن جبل سيناء في العربية . ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها ، وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعاً فهي حره . .... وأما نحن أيها الأخوة فنظير إسحاق أولاد الموعد . ولكن كما كان حينئذ الذي ولد حسب الجسد يضطهد حسب الروح هكذا الآن أيضاً . لكن ماذا يقول الكتاب . أطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة . إذاً أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولا حرة " . (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٤ : ٢١ - ٣١) .

هذه الروح العنصرية تسيطر على رسائل بولس الذي رفع المسيح إلى رتبة الألوهية إعلاء لليهود فإنه يقرر في رسائله أن الله اختار أما يهودية ليتحسد في بطنها في شكل يهودي إنه يجعل إسماعيل ومعنى اسمه (سمع الله) أي دعوة إبراهيم يجعله ابن الجارية وابناً من حيث الجسد لا من حيث الروح ، وأن إسحاق ابن الحرة قد ولد بالموعد ، ولو أنصف هذا الرجل لقال إن إسماعيل هو الذي جاء بالموعد لأن الله كان قد وعد إبراهيم بابن ، وقد تجاوز سنه السبعين عاما ، من هاجر ولم يولد له إسحاق إلا بعد أن بلغ إسماعيل أربعة عشر سنة على الأقل وقد عبر القرآن عن ذلك البلوغ بقوله " **فلما بلغ معه السعي** " أي صار قادراً على العمل مع أبيه . وقال ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ البقرة . وقد جاء في كتبهم

أن إبراهيم كان يحب إسماعيل جداً وأنه كان يصطحبه في كل عمل جليل وقد أخبرنا القرآن أنه هو الذي ساعده في بناء الكعبة وعمارة البيت ووضع قاعدة العمران في هذه البقعة القاحلة وغير الآهلة . ولقد كان إبراهيم عليه السلام يحب هاجر ويحدب عليها وقد كلم الملاك هاجر بل إنه يمكن أن يستشف من كلام التوراة أن الله نفسه هو الذي كلمها كما في الآية الثالثة عشر من نفس الإصحاح ولكن صاحب تفسير جيروم يقول أن الملاك هو الذي كلم هاجر وليس الله وذلك اجتهاداً منه في إزاحة التجسيد عن الله ، ولكي تتضح هذه النقطة ننقل هنا ما جاء في سفر التكوين ٢١ : ١٧ – ٢١ (فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع بصوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في بارية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر) في هذه الفقرة نلاحظ أن ملاك الله وهو جبريل عليه السلام قد كلم هاجر ، بنفس الطريقة التي كلم بها سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام ، وطمأنها ووعدها بفضل الله ورحمته بإسماعيل ابنها ووعد الله لها بأنه سيجعل إسماعيل أباً لأمة عظيمة ، وفتح الله عينيها على بئر ماء هي بئر زمزم لتروي منه طفلها ونفسها عندما كان الغلام يبكي بحرقة من شدة ألم العطش .

وفي الفقرة أيضاً دليل على أن عناية الله عز وجل كانت مع إسماعيل عليه السلام دائماً وأن إسماعيل سكن جبل فارن بالقرب من مكة وأنه عليه السلام تزوج أيضاً من امرأة مصرية اسمها غير معروف لنا . ونلاحظ أيضاً أن هذه الفقرة لا تتفق مع السيرة النبوية أو روايات التاريخ الإسلامي بشأن ظهور ماء بئر زمزم من تحت قدمي إسماعيل وإقامة البيت وعمارته .

ويفرض بولس العداء على أبناء الأنبياء ويغرس روح التعصب بين أتباع الأنبياء إذ يصرح بأن ابن الجارية لا يرث ابن الحرة ولسنا ندري على أي قاعدة بنى حكمه الظالم هذا ، وهو يباهى في موضع آخر بقوله : (إذاً أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة) (غلاطية ٤:٣١) .

وإذاً فأولاد هاجر في نظره عبيد وأبناء عبيد وإماء ، ولم لا وبولس يحط من مقام إبراهيم عليه السلام نفسه إذ يقول (فماذا نقول إن أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد، لأنه إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر، ولكن ليس لدى الله .) رسالة بولس إلى أهل رومية ١:٤.

فهو بهذا يحط من مقام إبراهيم من حيث يرفع نفسه إلى مقام الملاك بل وإلى مقام المسيح نفسه كما في (غلاطية ٤ : ١٢ – ١٤) .

وقد ارتفع بولس بنفسه إلى درجة التشريع وأعطى نفسه الحق في نسخ الناموس، وأقوال المسيح، وتقليل أهمية الدعوة إلى الأعمال الصالحة، وبناء كل شيء على مجرد الإيمان (غلاطية ٥ : ١) والإيمان الذي هو مجرد التسليم والذي هو عمل قلبي خالص لا بد أن يقوم عليه دليل أو أدلة من أعمال الجوارح وأفعال السلوك .

لقد كان بولس يسعى إلى إلغاء القانون الإلهي والتشريع السماوي لأنه في نظره يولد الخلافات والشحناء بين الناس والقوانين، والأحكام الشرعية في نظر هذا الرجل لا تعدو أن تكون قيوداً وأغلالاً تحد من حرية الإنسان، وتحول بين الإنسان وربه . جهل بولس وتبعه في ذلك الملحدون والعلمانيون أعداء الدين المستثقلين للتشريع الإلهي في كل عصر لا سيما في عصرنا الحاضر، عصر العلم والتكنولوجيا، وسيادة المادة والقوة ، أن المجتمعات لا تقوم بدون قوانين حتى ولو كانت بدائية وأن الناس لا تنصلح أحوالهم وتنضبط أنشطتهم ومساعيهم إذا لم يكن لهم حاكم ودستور وأن الأيمان وحده غير كاف لتحقيق أمن المجتمع وسلامة مسيرته وإلا لاكتفى الأنبياء جميعاً بدخول الناس في الإيمان وتركوهم دون تشريع ودساتير إلهية ولما أنزل الله عليهم من كتب وألواح وحكمه ولما كلفهم بالبلاغ .

إن إبراهيم عليه السلام لم يكتف بالإيمان بل عمل وجد في العمل هجر أباه ، وهاجر من موطنه وراغ على الأصنام باليمين ضرباً وتحطيماً ودعا الناس إلى الله ، وأولهم أبوه الذي كان يشتغل بصناعة الأصنام وبيعها للمتعبدين السذج ، ثم دعا إبراهيم عليه السلام حاكم زمانه وجادله وحاجه بشأن وجود الله عز وجل وخضوع الكل لأحكامه وقوانينه وسلطانه . وظل سيدنا إبراهيم عليه السلام داعياً إلى الله حتى آتاه اليقين فلم يقنط ولم يفرط .

الخاتمة

في هذا البحث تتبعنا الآيات القرآنية الخاصة باليهود وكذلك الأحاديث النبوية المناسبة للقرينة وقسمناها بحسب الموضوع إلى مجموعات ، درسنا كل مجموعة منها على حدة وذلك في ضوء الحوادث التاريخية وتداعياتها بالنسبة لليهود من جانب وبالنسبة للعلاقة اليهودية الإسلامية من جانب آخر .

درسنا أسماء اليهود من القرآن والسنة وما تضمنته من مفاهيم تتصل بتاريخهم وبالمجتمع اليهودي وتأثير ذلك على العقلية اليهودية .

وتكلمنا كذلك عن أنبياء بني إسرائيل والكتب التي جاءوا وأنها من عند الله ، وبالأخص التوارة التي نزلت على موسى ومع ذكر المعجزات التي أجراها الله على أيدي رسله الذين بعثهم لليهود برسالات محدودة ومحددة ، وموقف هؤلاء اليهود من هذه المعجزات ومن الأنبياء والآثار التي ترتبت عليها ، وكان ولا بد في بحث كهذا أن يتعرض لطريقة نزول التوراة وطبيعتها وحجمها واللغة التي نزلت بها . وقد فصلنا القول بعض الشيء في قضية تحريف كتب اليهود والنصارى وقد أثبتنا من كتبهم وأقوالهم صدق دعوى القرآن فيما يخص التحريف وأكدنا بالبرهان أن كتب اليهود وأولها التوراة قد تعرضت للتحريف بالزيادة والنقصان وأدلة التحريف كثيرة ومتنوعة فى كتب اليهود والنصارى .

غطى هذا البحث كثيراً من الموضوعات الخاصة ببني إسرائيل كموضوع الأطعمة ، الحلال والحرام منها وكالصيام والأعياد والمناسبات الدينية عند اليهود وباعتبار أنها كلها عوامل مساعدة ومحددة للشخصية اليهودية وكذلك القصاص والحدود وانطلاقاً من محاولة استكشاف الجوانب الغامضة في تفكير اليهود ، توجهنا بالدراسة لمواقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين في المدينة فاظهرنا للعيان حملتهم الدعائية ضد رسول الله ﷺ وتأليب القبائل عليه والوقيعة بين المهاجرين والأنصار وتجنيد طابور من المنافقين ضد الدولة الإسلامية ، هذا على الرغم من المعاهدة التي أبرمها رسول الله ﷺ والتي اعتبرهم فيها طرفاً كامل الأهلية وله حق المواطنة سواء بسواء مع المسلمين .

ولقد أظهرت دراستنا أن القرآن اهتم اهتماماً كبيراً باليهود باعتبارهم أهل كتاب سابق . وقد نبه القرآن الكريم فى كثير من مواضعه ~~وذلك~~ على خطر اليهود دون تحيز ضدهم أو تحامل عليهم ، وبيّن دون عنصرية حقيقة أمرهم ، وذلك من خلال تاريخهم ومواقفهم مع أنبيائهم وموقف أنبيائهم منهم .

ولا يوجد كتاب في العالم خير من كتاب الله تعالى قد حلل نفسية وعقلية وبيئة اليهود .

المصادر

القرآن الكريم .

كتب الصحاح والمسانيد .

الكتاب المقدس ، الطبعة العربية القاهرة ١٩٧٠ .

أبو ليلة (محمد بن محمد) ، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقى ، دراسة نقدية مقارنة ، (المغرب ، منظمة التربية والعلوم والثقافة "إيسسكو" ١٩٨٨م) .

أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤف سعد ، بيروت ، دار الجيل ، بدون تاريخ .

ابن تيمية (تقى الدين أحمد) ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، السعودية ، مكتبة المجد، بدون تاريخ .

ابن حزم الأندلسى (على بن أحمد) ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ، مكتبة صبيح ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

ابن حزم الأندلسى ، الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ، دار العروبة ١٩٦٠م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ، كتاب المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

ابن كثير ، مختصر تفسير ، تحقيق محمد على الصابونى ، بيروت ، دار القرآن ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م .

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ابن ميمون الأندلسى موسى ، دلالة الحائرين ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية .

البلاذرى (أبو الحسن) ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد) ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق هيروس جيبون فون وإدوارد ساشو ، ليبزج ، أوتو هرآسو ويتس ١٩٢٣م .

البيضاوى (ناصر الدين عبد الله) ، أنوار التنزيل ، القاهرة ، الحلبى ١٩٣٩م .

الزمخشرى (القاسم جار الله محمد) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوب التأويل ، القاهرة ١٩٦٦م .

الشهرستانى ، الملل والنحل بهامش كتاب الفصل .

الطبرى (أبو جعفر بن جرير) ، الجامع لأحكام القرآن .

القرطبى (شمس الدين محمد بن أحمد) ، الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الاسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، تحقيق أحمد حجازى السقا ، القاهرة ، دار التراث العربى ١٩٨٠م .

القرطبى (أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد) ، مقامع هامات الصلبان ومراتع رضوات الإيمان ، تحقيق محمد شامة ، القاهرة ، المدنى ، بدون تاريخ .

القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى) ، الجامع لأحكام القرآن ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

القلقشندى (أحمد بن عبد الله) ، صبح الأعشى ، القاهرة ، المؤسسة المصرية ١٩٦٣م .

المسعودى (أبوالحسن على بن الحسين) ، كتاب التنبيه والإشراف ، لايدن ، مطبعة بيرل ١٨٩٣م .

محمد السيد طنطاوى (شيخ الأزهر) ، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ، بغداد ، جامعة البصرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

محمد بن على الشوكانى ، نيل الأوطار ، القاهرة ، المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ .

محمد جواد على ، المفسر فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ـ دار العلم ، بغداد ـ النهضة ١٩٧٠م .

A.J. Wensinck , "Israel" , The Encyclopaedia of Islam .

Abraham Geiger, Was hat Mohammad aus dom. Judenthwme aufgemommen ? (What did Mohammad take from Judaism see Judaism and Islam (New York KTAV Publishing House 1970) .

Albert M. Hyamson and A.M. Silbermann (ed.) Vallentine's Tewish Encyclopaedia (London , Vallentine and Co., 1938) .

Bernard Lewis, The Jews of Islam (London Routledge and Kegan Paul Plc, 1984) .

Colin Brown, (ed.) , Dictionary of New Testament Theology (Exeter The Paternoster Press, 1975) .

David Brown , The Christian Scriptures (London , Sheldon Press, 1986).

Heimirich Speyer "Yahud" Bernard Lewis, et. al., (ed.) , The Encyclopaedia of Islam, new edition (Leiden, E-J. Brill, London Luzac and Co., 1971) .

Heinrich Graetz, History of the Jews , (Philadelphia , 1949) .

Merrill, C. Tenney (ed.) et. al., The Zondervan Pictorial Encyclopaedia of the Bible (USA The Zondervan Corporation 1975) .

Patricia Crone and Michael Cook, Hagarism , (Cambridge, Cambridge University Press 1977) .

Solomon Nigosian, Judaism the way of holiness (London, the Aquaian Press, 1986 // 64-65) .

W. Montgomery Watt, Mohammad prophet and statesman, (Oxford, Oxford University Press, 1978).

The Babylonian Tamud, Translated into English with notes, glossary and indices under the edition of I. Epstein , (London , The Soncino Press , 1984) , Baba Mezia , Sanhedrin .